سلسلة
عصور
مصرية

دولة سلاطين المماليك في مصر



تقديم: د. قاسم عبده قاسم
تأليف: جيهان ممدوح مأمون



السلسلة: عصور مصرية

العنوان: دولة سلاطين المماليك في مصر

تقديم: د. قاسم عبده قاسم

تأليف: جيهان ممدوح مأمون

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم



الترقيم الدولي: 2 - 3611 - 14 - 977   رقم الإيداع: 2007/16663   الطبعة 1: فبراير 2009

الإدارة العامة: 21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
تليفون: 33466434 - 02 33472864
فاكس: 02 33462576

المركز الرئيسي: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - 6 أكتوبر
تليفون: 38330287 - 02 38330289
فاكس: 02 38330296

مركز التوزيع: 18 شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة
تليفون: 25909827 - 02 25908895
فاكس: 02 25903395

فرع الإسكندرية: 408 طريق الحرية - رشدي
تليفون: 03 5462090

فرع المنصورة: 13 شارع المستشفى الدولي التخصصي - متفرع من شارع عبد السلام عارف - مدينة السلام
تليفون: 050 2221866

خدمة العملاء: *16766*

Website: www.nahdetmisr.com E-mail: publishing@nahdetmisr.com - customerservice@nahdetmisr.com

تقديم

دولة سلاطين المماليك في مصر والشام كانت وريثة الدولة الأيوبية في نظامها السياسي والإداري، كما كانت وريثتها في الجهاد ضد الفرنج الصليبيين، ولكنها أيضًا كانت الدولة التي احتوت هجوم المغول وهزمتهم في عين جالوت ثم تحولوا إلى الإسلام وصاروا قوة هائلة في خدمة الحضارة العربية الإسلامية. مدى حوالي ثلاثة قرون، حكم سلاطين المماليك مصر والشام والحجاز وامتد نفوذهم السياسي إلى كل أنحاء العالم المسلم، كما كانت دولتهم هي الأكثر احترامًا في عالم ذلك الزمان.

لقد كان المماليك أطفالاً تربوا في بلاط السلطة في طفولتهم، وأصبحوا أبطال الإسلام حين كبروا نتيجة تربية عربية إسلامية وعسكرية صارمة، أهلتهم لأن يكونوا قادة فيما بعد. وكان معظمهم من السلاطين الكبار الذين تركوا بصماتهم على جبهة الزمان: قطز قاهر التتار في عين جالوت، بيبرس أسد الإسلام، قلاوون قاهر الصليبيين وصاحب أشهر وأقدم مستشفى في تاريخ البشرية، الأشرف خليل بن قلاوون محرر عكا الذي قضى على الوجود الصليبي الذي دام قرنين من الزمان، برسباي فاتح قبرص وقاهر ملكها الصليبي، قايتباي صاحب قلعة الإسكندرية البديعة، وغيرهم من السلاطين الذين بقيت آثارهم في مصر كلها.

كان ذلك العصر الذي ظلمه المؤرخون المستشرقون، من أهم وأروع العصور التاريخية التي مرت على مصر؛ فقد كانت البلاد غنية زاهرة طوال الشطر الأكبر من تلك الفترة، وكان زوارها من المسلمين والأوروبيين على السواء ينبهرون بها، وكانت القاهرة أكبر مدن الدنيا وأكثرها ثراء وأشدها حيوية، وكانت في مساحتها تساوي أربع أو خمس مدن أوروبية مجتمعة. وفي مجال الفن والأدب والعلم كانت مصر المعقل الأخير للثقافة العربية الإسلامية، وحرص السلاطين الكبار على بناء المدارس (التي تشبه الجامعات الحالية) وأوقفوا عليها أوقافاً كثيرة للإنفاق؛ واجتذبت مصر الفنانين والأدباء والمؤرخين والأطباء والصناع المهرة من كافة أنحاءالعالم المسلم بسبب الازدهار والأمان الذي نعمت به في ذلك العصر.

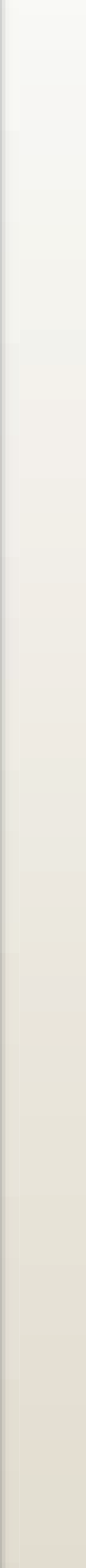
ولكن السنوات الخمسين الأخيرة تقريبًا كانت مرحلة تدهور وذبول على كافة المستويات بسبب فساد الحكام وانتشار الظلم والرشوة؛ فضلًا عن المجاعات والأوبئة وتناقص عدد السكان. وتناقص مساحة الأرض الزراعية، واختفاء صناعات وحرف بأكملها، ثم جاء العثمانيون ليطيحوا بالدولة في معركتين فقط (مرج دابق والريدانية) ويحولوا مصر والشام إلى ولايتين عثمانيتين.

هذا الكتاب نجح إلى حد كبير، بالكلمة والصورة، في التعريف بهذا العصر الزاهر الزاخر بالأحداث والتفاصيل، ويحمد للمؤلفة جهدها الكبير في هذا الكتاب الصغير. كما أن مجموعة شركات نهضة مصر تستحق التقدير والشكر لأنها سبقت دور النشر العربية في تبسيط التاريخ وتقديمه على هذا النحو الجميل.

والله الموفق والمستعان

د. قاسم عبده قاسم
الجيزة – يناير 2009

المحتويات





دولة المماليك في مصر (1250 - 1517م)

المماليك هم أطفال صغار اختطفهم تجار الرقيق وكانوا يبيعونهم إلى السلاطين والأمراء في العصر الأيوبي، وتتم تنشئتهم نشأة عسكرية ليصبحوا محاربين. كانوا يتفرغون لأعمال الفروسية ولايزاولون أي مهنة أخرى غير الجندية. ومع مرور الوقت ازداد نفوذهم ووصلوا إلى أعلى المناصب واستولوا على حكم البلاد. كان كل مملوك ينتسب إلى صاحبه الذي اشتراه ويسمى باسمه. ويتسم عصرالمماليك بأنه عصر رخاء اقتصادي وازدهار، ولكن كثرت فيه الفتن والمؤامرات ويعتبر أيضًا العصر الذهبي للفنون والعمارة الإسلامية؛ حيث بنى كل مملوك تولى الحكم مسجدًا يحمل اسمه. وتختلف عادات وتقاليد المماليك تبعًا لاختلاف أجناسهم ولكنهم كلهم ارتبطوا برباط واحد هو انتماؤهم للدين الإسلامي. وأعظم إنجازات هذا العصر هو التصدي لهجمات المغول والصليبيين.



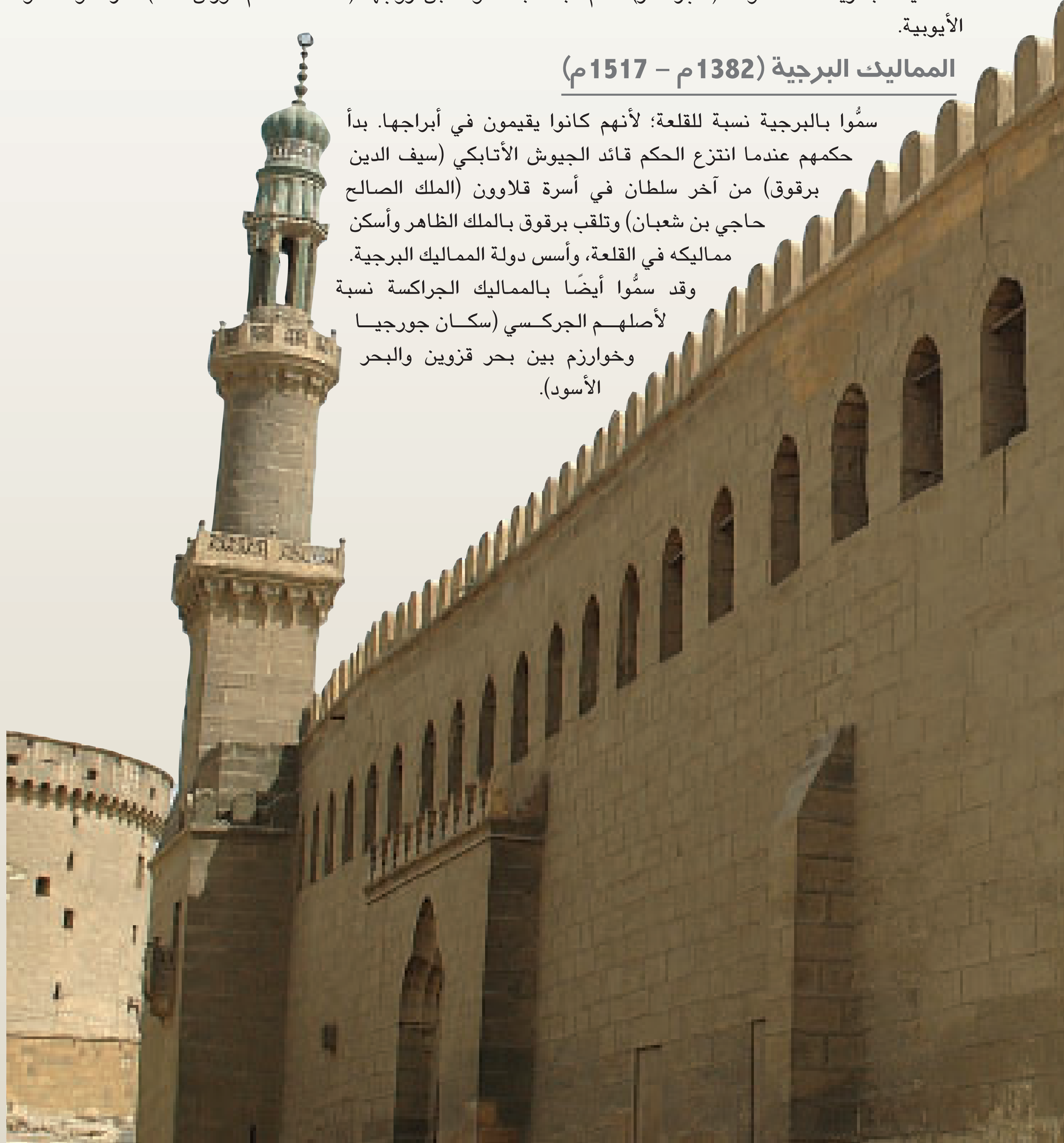
ينقسم المماليك إلى قسمين:

المماليك البحرية (1250م – 1382م)

تم إحضارهم من بلاد القوقاز وفارس والمغول ومن منطقة تركستان الروسية (بلاد ما وراء النهر) وسمرقند. وكانوا يقيمون في معسكرات أعدت لهم في جزيرة الروضة وقد سموا بالبحرية نسبة لنهر النيل الذي كانوا يقيمون بجواره. وقد بدأت دولة المماليك البحرية عندما تولت (شجر الدر) حكم البلاد بعد موت ابن زوجها (الملك المعظم توران شاه) آخر ملوك الدولة الأيوبية.

المماليك البرجية (1382م – 1517م)

سمُّوا بالبرجية نسبة للقلعة؛ لأنهم كانوا يقيمون في أبراجها. بدأ حكمهم عندما انتزع الحكم قائد الجيوش الأتابكي (سيف الدين برقوق) من آخر سلطان في أسرة قلاوون (الملك الصالح حاجي بن شعبان) وتلقب برقوق بالملك الظاهر وأسكن مماليكه في القلعة، وأسس دولة المماليك البرجية. وقد سمُّوا أيضًا بالمماليك الجراكسة نسبة لأصلهم الجركسي (سكان جورجيا وخوارزم بين بحر قزوين والبحر الأسود).



جامع الناصر محمد بن قلاوون في القلعة



الحُكم

كان الحكم في عصر سلاطين المماليك قائمًا على أساس مبدأ «الحكم لمن غلب» لا الوراثة. وكانت أهم رابطة هي رابطة الزمالة «الخشداشية» بين أبناء الطائفة الواحدة مثل الأشرفية، والمنصورية وغيرها.

ورابطة «الأستاذية» أو السيادة التي تربط بين المماليك وسيدهم (أي أستاذهم). فالمُلك يكون لأقوى الأمراء بعد وفاة السلطان. أما في عهد المماليك البحرية فقد ورثوا الحكم في حالات قليلة مثلما حدث مع أسرة السلطان قلاوون.

وكان كل سلطان يتخذ لقبًا عند توليه الحكم يضعه قبل اسمه مثل الظاهر، الناصر، المظفر.

قيام دولة المماليك

اتخذ الملك الناصر (صلاح الدين الأيوبى) القاهرة عاصمة للبلاد في عصر الدولة الأيوبية فحصنها وبنى بها قلعة الجبل والأسوار. ومات بعد عشرين سنة من البطولات، فقد انتصر على الصليبيين واسترد بيت المقدس. اشتد النزاع بعد موت صلاح الدين بين أفراد أسرته وانتهى الحكم لأخيه العادل وكان ملكًا قويًا وخلفه حفيده (الصالح نجم الدين أيوب) الذي أراد أن يقوي نفوذه وسلطته داخل البلاد فاستكثر من شراء المماليك حتى ضاقت بهم القاهرة فأقام لهم معسكرات في جزيرة الروضة بجوار مقياس النيل وأسكنهم بها فسموا بالمماليك البحرية. وفي هذا الوقت هجم الصليبيون في الحملة الصليبية السابعة على مدينة (دمياط) التي تقع على البحر المتوسط ومعهم عدد مائتي مركب؛ فجهز الملك الصالح جيوشه وخرج لملاقاتهم ووصل إلى مدينة المنصورة وكان مريضًا فاشتد عليه المرض ومات. كتم القادة خبر موته خوفا من (الفرنج) أي الصليبيين فحملوه في الليل إلى قلعة الروضة في مركب ولم يعلم الناس بموته وأخذت المراسم تخرج إلى الناس كل يوم وعليها علامة السلطان فلم يشك أحد في موته.[1] وبعثوا إلى ابنه (توران شاه) فأعلن موت أبيه وتولى الحكم ولقب بالملك المعظم (1250م).

مو قعة المنصورة

وتقاتل (توران شاه) مع الفرنج في (موقعة المنصورة) وقتل عدد كبير من الطرفين في المعركة وهرب الصليبيون بعد أن هزموا هزيمة منكرة وأسر قائدهم (لويس التاسع) في دار القاضي (ابن لقمان). أظهرت هذه المعركة أهمية وقوة فرسان المماليك بعد هذا النصر الغالي على الصليبيين. وبعد انتهاء المعركة تآمر المماليك على(توران شاه) وقتلوه.[2] وبمقتله انتهت الدولة الأيوبية.

---

(1) بدائع الزهور، ص104.

(2) بدائع الزهور، ص105.


شمعدان من النحاس المطعم
بالذهب والفضة

شجر الدر

هي أول امرأة تحكم في تاريخ مصر الإسلامية وأول من حكم في دولة المماليك، تولت الحكم بعد مقتل (توران شاه) وهي زوجة أبيه (الصالح نجم الدين أيوب) وأم ولده خليل. وقد خطب باسمها «السلطانة ملكة المسلمين أم خليل الصالحية المستعصمية» على المنابر ونقش اسمها على الدنانير ولما طلبت من الخليفة العباسي توليتها شرعيًا رفض واستنكر تولي امرأة الحكم وطلب الرجوع عن ذلك. فلما علمت (شجر الدر) بموقف الخليفة العباسي تزوجت المملوك (عز الدين أيبك) وخلعت نفسها بعد 80 يومًا من حكم مصر وتنازلت له عن الملك.

عز الدين أيبك

هو السلطان الملك (المعز عز الدين أيبك التركماني) من مماليك (الصالح نجم الدين أيوب) أعتقه وصار أميرًا ثم أتابكًا للعسكر أي قائدًا للجيوش. وعندما تولى أيبك الحكم ثار عليه المماليك بقيادة الأمير(فارس الدين أقطاي) والأمير (بيبرس البندقداري) وغيرهما لرغبتهم في أن يتولى حكم البلاد أحد أفراد أسرة بني أيوب فأحضروا (مظفر الدين يوسف الأيوبي) وقاسم أيبك في الحكم مناصفة.[1]


باب جامع المؤيد

الباب المحروق

دَبَّرَ عز الدين أيبك وزوجته شجر الدر مؤامرة للقضاء على المماليك البحرية، ودعا زعيمهم فارس الدين أقطاي إلى القلعة حيث تم اغتياله وألقى رأسه من فوق أسوار القلعة إلى رفاقه الذين هربوا من أحد أبواب القاهرة وعرف باسم «الباب المحروق» ثم «باب الخرق»، وحاليًا يُعرف بـ «باب الخلق».[2]

مقتل أيبك وشجر الدر

ازداد نفوذ أيبك فبعث يخطب بنت (الملك بدر الدين لؤلؤ) حاكم الموصل بالعراق فلما علمت (شجر الدر) بالأمر غضبت غضبًا شديدًا وأحضرت خمسة من العبيد لقتل زوجها، فقتلوه بعد أن حكم سبع سنوات. علمت زوجة أيبك الأخرى (أم علي) بقتل زوجها فقررت الانتقام لموته؛ وقبض مماليك المعز أيبك على شجر الدر ثم قتلوها وألقوا جثتها من فوق القلعة.[3]

(1) النجوم الزاهرة، ص224.

(2) بدائع الزهور، ص112.

(3) تحفة الناظرين، ص97.

أولًا : سلاطين المماليك البحرية

من أشهر هؤلاء المماليك سيف الدين قطز وبيبرس البندقدار.

سيف الدين قطز

هو الملك المظفر (سيف الدين قطز) كان من مماليك (عز الدين أيبك التركماني) و قد صار قطز قائدًا لجنود أيبك ثم قائدًا للجيوش. وبعد مقتل أيبك تولى ابنه (المنصور) الحكم وكان طفلًا عمره أحد عشر عامًا فعين قطز وصيًّا عليه. وعند هجوم المغول على مصر عزل قطز (المنصور) لأن البلاد كانت محتاجة لسلطان كبير لدفع العدو وتولي الأمور وقد تم تنصيبه سلطانًا (1259م). وصل المغول إلى بغداد ودمروها وقتلوا الخليفة العباسي ثم هجموا على الشام واستولوا على حلب.

رسالة هولاكو

وأرسل هولاكو قائد المغول رسالة تهديد ووعيد إلى قطز للاعتراف بسيادة المغول على مصر والشام. وقد رد قطز على هذا التهديد بقتل رسل التتار وعلق رءوسهم على باب زويلة. ثم دعا الأمراء إلى الخروج للحرب وسانده في الدعوة الشيخ العز بن عبدالسلام، وخرج الجيش لقتال التتار.[1]

من هم المغول والتتار؟

المغول هم قبائل وثنية كانوا يعبدون الكواكب والشمس، قائدهم هو (جنكيز خان) وقد بنى إمبراطورية شاسعة تمتد من بلاد الصين شرقًا إلى بحر قزوين غربًا. وقد بدءوا الإغارة على العالم الإسلامي (1219م) عندما هجموا على بلاد السلطان (خوارزم شاه) ثم هاجموا باقي البلدان وارتكبوا مذابح وحشية وخربوا ونهبوا وسرقوا وقتلوا من سلم لهم ومن قاتلهم. وقد أصابوا الناس بالفزع والرعب في كل البلاد.

ما الفرق بين المغول والتتار؟

المغول: قبائل يعود أصلهم إلى صحراء جوبي بأطراف بلاد الصين وهم قبائل وثنية.

التتار: أعم من المغول، وتشملهم قبائل الترك والمغول والإيغور والسلاجقة من سكان هذه المناطق.

موقعة عين جالوت (1260م)

هي موقعة من أعظم معارك التاريخ الإسلامي فقد صد المماليك هجوم التتار على مصر والشام والحجاز. انطلقت قوات المماليك بقيادة (سيف الدين قطز) وعبرت سيناء بمحاذاة البحر الأحمر متوجهة إلى الشام؛ لأن قطز رأى أن يذهب هو إلى التتار ويهاجمهم قبل أن يهاجموه. كانت الحرب في الرابع عشر من شهر رمضان فلما وصل قطز إلى (عين جالوت) أخفى قواته خلف التلال وأظهر فقط جيش المقدمة ليخدع التتار، فهجم قائد المغول بكل جيوشه مرة واحدة فخرجت قوات المماليك المختبئة وأحاطت بجيش المغول وصاح قطز في الجنود: «واإسلاماه. ياالله انصر عبدك قطز على التتار» وكانت معركة شديدة، قتل فيها عدد كبير من الفريقين. وانتصر المماليك وهزموا التتار هزيمة منكرة وأخذوا قائدهم أسيرًا وقيدوه بالأغلال. وأمر (قطز) الأمير (بيبرس البندقداري) أن يتبع جيوش التتار فتبعهم حتى وصلوا إلى حلب. وتعتبر هذه الموقعة من المواقع المهمة جدًّا؛ لأنها ساعدت المماليك في أن يحكموا مصر ويثبتوا ملكهم بالنصر ومن ناحية أخرى هي أول هزيمة للتتار منذ بداية حروبهم.[2]

مئذنة جامع المؤيد

(1) بدائع الزهور، ص118.

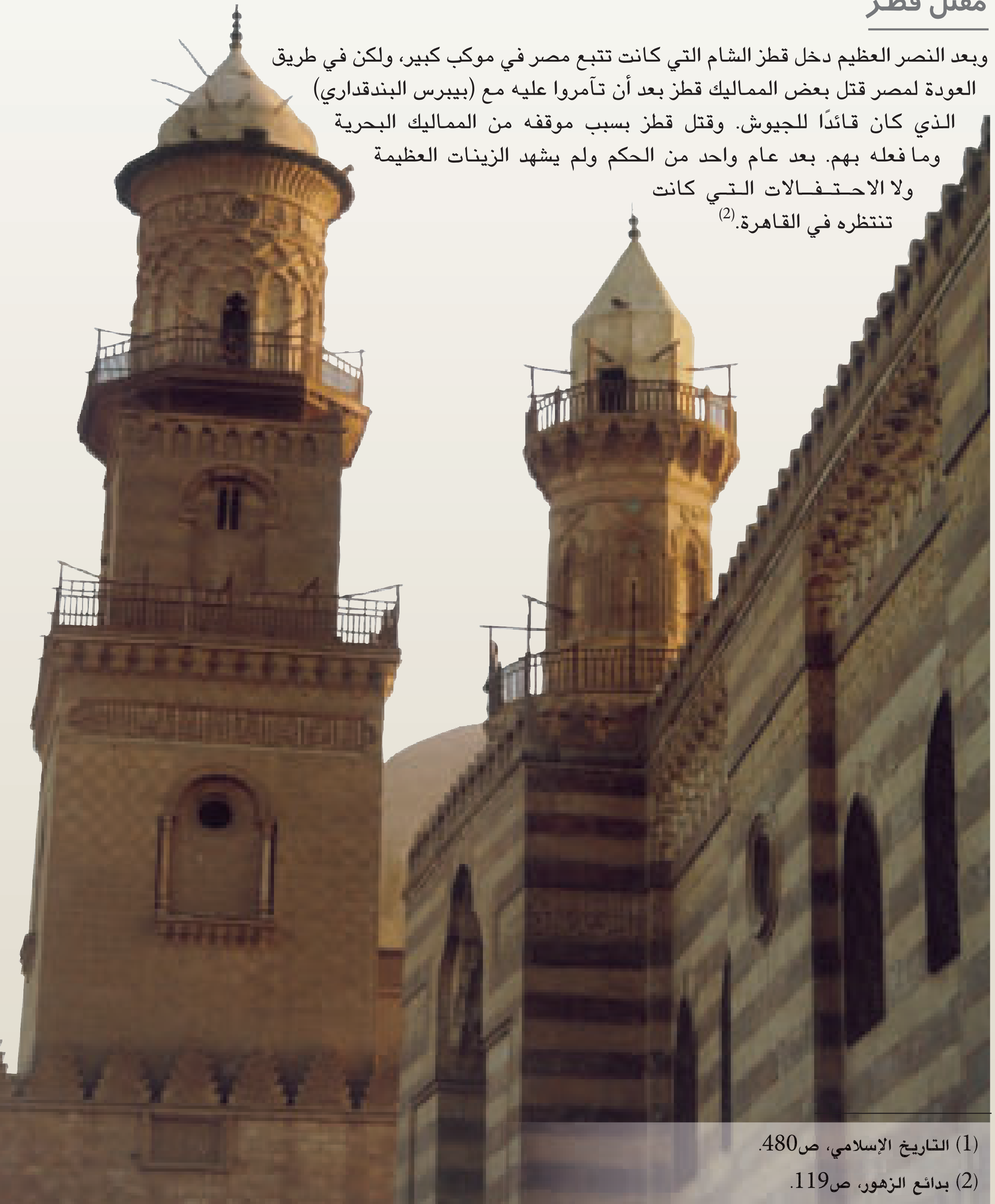
(2) تحفة الناظرين، ص98.

العز بن عبد السلام

هو شيخ الإسلام (عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن) ولد في دمشق وكان من علماء الشافعية الكبار وتلقب بسلطان العلماء. حضر إلى مصر في أيام حكم الملك الأيوبي (الملك الصالح نجم الدين أيوب) فولاه قضاء مصر. كان له الكثير من المواقف البطولية فعندما وصلت أخبار قدوم التتار إلى مصر شجع الناس على بذل الأموال للإنفاق على المعركة وعلى الاحتشاد لقتال التتار وقال: «إذا دهم العدو البلاد وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم.»[1]

مقتل قطز

وبعد النصر العظيم دخل قطز الشام التي كانت تتبع مصر في موكب كبير، ولكن في طريق العودة لمصر قتل بعض المماليك قطز بعد أن تآمروا عليه مع (بيبرس البندقداري) الذي كان قائدًا للجيوش. وقتل قطز بسبب موقفه من المماليك البحرية وما فعله بهم. بعد عام واحد من الحكم ولم يشهد الزينات العظيمة ولا الاحتفالات التي كانت تنتظره في القاهرة.[2]



(1) التاريخ الإسلامي، ص480.

(2) بدائع الزهور، ص119.

مجموعة قلاوون

الظاهر بيبرس

هو الملك (الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري) حكم سنة (1261م) وهو أشهر سلاطين المماليك البحرية ويعتبر المؤسس الحقيقي لدولة المماليك. كان تركيًا وتم اختطافه وهو صغير وبيع كمملوك، لقب بالبندقداري نسبة لسيده (علاء الدين بندقدار) كما كان من مماليك (الصالح نجم الدين أيوب) ثم عمل في خدمة (توران شاه) ثم عمل في خدمة الأمير (فارس الدين أقطاي المستعرب) ولما قتل أقطاي صار من زعماء المماليك البحرية.

كيف أصبح ملكًا؟

بعد انتهاء موقعة (عين جالوت) ومقتل الملك المظفر قطز دخل بيبرس القاهرة في الليل وطلع إلى قلعة الجبل ونصب نفسه سلطانًا وفي الصباح نادى المنادي في أهل مصر (ترحموا على الملك المظفر قطز وادعوا بالنصر للملك الظاهر بيبرس البندقداري)[1] فحزن الناس على موت قطز حزنًا شديدًا. تلقب بيبرس في بداية حكمه بـ(الملك القاهر) فنصحه العلماء أن يغير هذا اللقب لأن كل من تلقب بالقاهر لم يستمر حكمه فغير لقبه إلى الظاهر بيبرس[2]. كان قائدًا شجاعًا وقد أمضى معظم مدة حكمه في الحروب. وقد اتخذ الأسد شعارًا له، ومات في دمشق (1277م) وعمره ستون عامًا.

هيئته:

كان بيبرس طويل القامة حسن الطلعة أزرق العينين.

أهم أعماله:

بدأ بيبرس حكمه بتنظيم أمور دولته الداخلية:

- بنى المدارس والمساجد ومنها (جامع الظاهر بيبرس).
- نظم الري وأنشأ الجسور.



(1) بدائع الزهور، ص120.

(2) المرجع السابق، ص120.

جامع الظاهر بيبرس



– خفف الضرائب عن الأهالي.
– جدد الأسطول.
– أنشأ الطرق وقوى الحصون.
– أنشأ البريد السريع بين مصر ودمشق بواسطة الحمام الزاجل.
– عين قاضيًا لكل مذهب من المذاهب الأربعة.
– نقل مقر الخلافة العباسية إلى مصر فأصبحت القاهرة مقر الخلافة التي يدين لها كل العالم بالولاء.
و قد حكم لمدة سبعة عشر عامًا .

شجاعة بيبرس في الحروب

لقب بيبرس (بأبي الفتوحات) لكثرة فتوحاته وانتصاراته. كان قائدًا شجاعًا وله بطولات كثيرة في (معركة المنصورة) ومعركة (عين جالوت). وقد أخضع جنوب مصر لسلطته.

حروبه مع الصليبيين

كان الصليبيون لا يزالون يحتلون مدنًا على ساحل الشام فحاربهم بيبرس عشر سنوات واستعاد يافا وأنطاكية وهدم حصونها فتم طرد الصليبيين. فتح (الظاهر بيبرس) مدينة أنطاكية وأسر حاكمها وأسر مائة ألف من سكانها (1268م) ونتيجة لهذا النصر طلب ملوك أرمينية وطرابلس وملك بيت المقدس الصلح مع بيبرس. وافق بيبرس على الصلح ليتفرغ لقتال التتار.[1]

(1) التاريخ الإسلامي، ص484.



الأسد شعار الظاهر بيبرس

ما الحروب الصليبية؟

كانت الحروب الصليبية حملات عسكرية قامت بها دول أوروبا الكاثوليكية في الشرق لاسترداد بيت المقدس من المسلمين وكانت السبب في جمع المزيد من الضرائب وتحسين صورة الحكام عند شعوبهم وقد اتخذت الصليب رمزًا لها. وقد بدأت هذه الحروب في القرن الحادي عشر الميلادي وانتهت بعد قرنين من الزمان أي مائتي سنة من الحروب عندما استولت المماليك البحرية على آخر ما بقي في أيدي الصليبيين في بلاد الشام من الأراضي. وقد أريقت دماء كثيرة للطرفين أثناء هذه الحروب وضاعت أموال لا حصر لها.

حروبه مع التتار

بعد هزيمة التتار في موقعة (عين جالوت) دب الخلاف بين قائد التتار (هولاكو) وابن عمه (بركة خان). وقد اعتنق (بركة خان) الإسلام وتحالف مع (بيبرس) ضد (هولاكو). ودارت معركة شرسة بين (بركة خان) و(هولاكو) انتهت بهزيمة (هولاكو) هزيمة منكرة. وقد خاض بيبرس حربًا ضد التتار (1271م) عند نهر الفرات وهزمهم ثم خاض حربًا أخرى ضد التتار (1276م) في حلب وهزمهم، وقد صاهر ملك التتار المسلم وتزوج ابنته.[1]

الخلافة العباسية

بقيت الخلافة الإسلامية فى (بغداد) عاصمة العراق حتى هجم عليها المغول بقيادة (هولاكو) فخربوها وقتلوا الخليفة العباسي. فكر(الظاهر بيبرس البندقداري) (1261م) في أن يعيد الخلافة العباسية ويجعل مصر مقرها فيستمد منها المماليك السلطة الشرعية. بعث بيبرس الجنود يبحثون عن أي أحياء من الدولة العباسية بعد مذبحة (هولاكو) فوجدوا أحد الأمراء نجا من المذبحة. دخل الأمير مصر في موكب عظيم وخرج بيبرس بنفسه لاستقباله وأطلق عليه (المستنصر بالله) وحلف له بيبرس يمين الولاء. استقر السلطان العباسي بالقاهرة ولم يكن له سلطة حقيقية؛ لأن السلطة الفعلية كانت في يد المماليك، وبقيت الدولة العباسية في مصر حتى دخول العثمانيين.[2]

أسرة قلاوون (1279م – 1290م)

لم يؤمن المماليك بمبدأ توريث الحكم؛ لأنهم جميعا نشأوا نشأة واحدة ولكن خرجت عن هذه القاعدة أسرة قلاوون فقد بقي الملك في أسرتهم أكثر من مائة عام غير متصلة تخللتها فترات حكم سلاطين آخرين. تمثل فترة حكم أسرة قلاوون فترة مهمة في تاريخ مصر، فقد تمكن مماليك هذه الأسرة من صد هجمات المغول والتتار. (المنصور قلاوون) وابنه السلطان (الأشرف خليل) وابنه الآخر (الناصر محمد بن قلاوون) وازدهرت أحوال البلاد في عصرهم وانتعشت الفنون وعم الرخاء.

(1) التاريخ الإسلامي، ص482.

(2) تحفة الناظرين، ص99.

الملك المنصور قلاوون (1279-1290 م)

هو (الملك المنصور سيف الدين قلاوون أبو المعالي الألفي الصالحي النجمي) جاء إلى مصر صغيرًا بعد أن استولى المغول على بلدة (قبجاق) في جنوب روسيا وهو تركي الأصل. كان مملوكًا للأمير (علاء الدين آق سنقر) اشتراه بمبلغ ألف دينار فلقب قلاوون بالألفي وارتفعت منزلته خلال حكم الظاهر بيبرس، عزل قلاوون السلطان (العادل بدر الدين سلامش) ابن الظاهر بيبرس وتولى هو الحكم. وأسند قلاوون المناصب الكبرى إلى زملائه (خشداشيته) ليدعم ويقوي سلطته. كان قلاوون سلطانًا كريمًا شجاعًا مقدامًا وساد في عهده العدل والسكينة.[1] كان مغرمًا بشراء المماليك حتى قيل إنه كان يملك (12.000) مملوك.



قصة

عندما كان السلطان قلاوون أميرًا كان يوجد سجن يسمى (حبس المعونة). وعندما كان قلاوون يمر بجوار هذا السجن كان يسمع صراخ المساجين وشكواهم من الجوع فعاهد الله لو أصبح سلطانًا على مصر، فسوف يهدم هذا السجن. وعندما أصبح سلطانا (1281م) وفَّى بوعده وهدم السجن وأقام مكانه سوقًا لبائعي العنبر وهو حجر يستخدم كعطر عند طحنه وله رائحة زكية وسُمِّي (سوق العنبريين).[2]

هيئته

كان قصير القامة، عريض الكتفين، وسيمًا، حسن الشكل، وقورًا وله لحية مستديرة خطها الشيب.

أهم أعماله

- قام بإلغاء الكثير من الضرائب للتخفيف عن الناس.
- كان صاحب نهضة معمارية فبنى أول مجمع في العمارة الإسلامية (مجمع قلاوون) وهو يتكون من جامع ومدرسة وضريح وبيمارستان (مستشفى).
- انتعش الاقتصاد في عصره.
- فتح أسواقًا جديدة على العالم.
- أنشأ أسطولًا قويًّا مكونًا من ستين مركبًا وجهزه بالآلات الحربية وأقام حفلًا كبيرًا حضره كل الناس لرؤية الأسطول.
- أنشأ سوق العنبريين.

(1) الخطط المقريزية، ص142.

(2) الطبقات الشعبية، ص64.

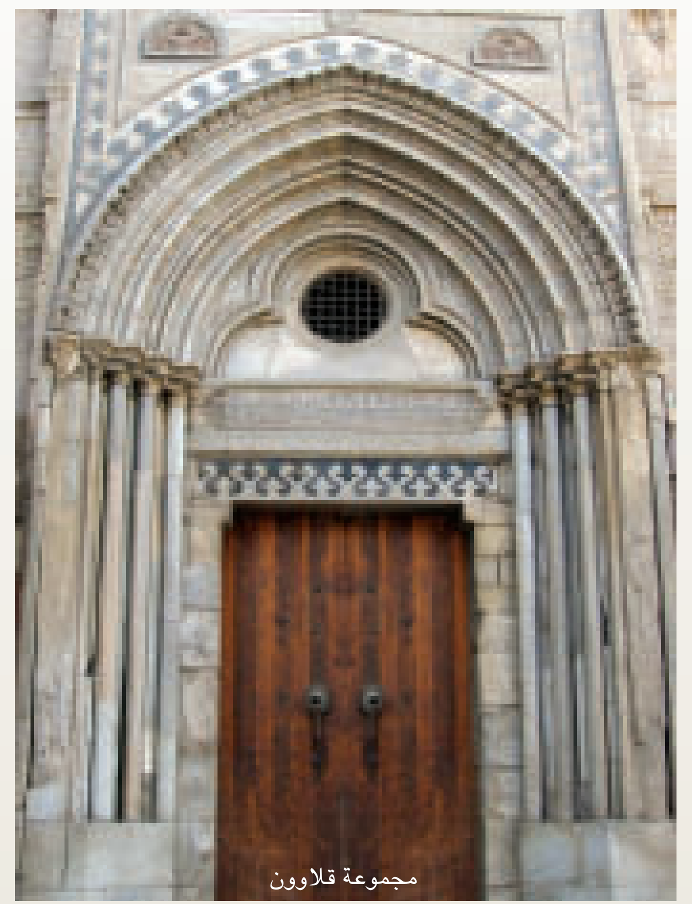
مئذنة مجموعة قلاوون

حروبه

- اشترك المنصور قلاوون في موقعة (عين جالوت).
- عندما خلع قلاوون السلطان العادل وتولى الحكم رفض نائب دمشق (سنقر الأشقر) أن يعترف به سلطانًا ولم يحلف له اليمين. فبعث له قلاوون بجيش فهزمه وقضى على الفتنة وتفرغ لمواجهة خطر المغول والصليبيين.
- وقع هدنة مع الصليبيين (1281م) مدتها عشر سنوات.
- خرج للشام وتقاتل مع المغول في موقعة (مرج حمص) (1281م). بعد انتهائه من المغول تحارب قلاوون مع الصليبيين في الشام ثم استولى على اللاذقية وطرابلس وبيروت.

اعتناق المغول الإسلام

اعتنق (تكودار بن هولاكو) الإسلام وسمى نفسه (أحمد سلطان تكودار) وتحسنت علاقة التتار مع المماليك منذ ذلك الوقت إذ إن الدين الإسلامي جمع بين الدولتين وأصبح المغول جزءًا من العالم الإسلامي.



مجموعة قلاوون

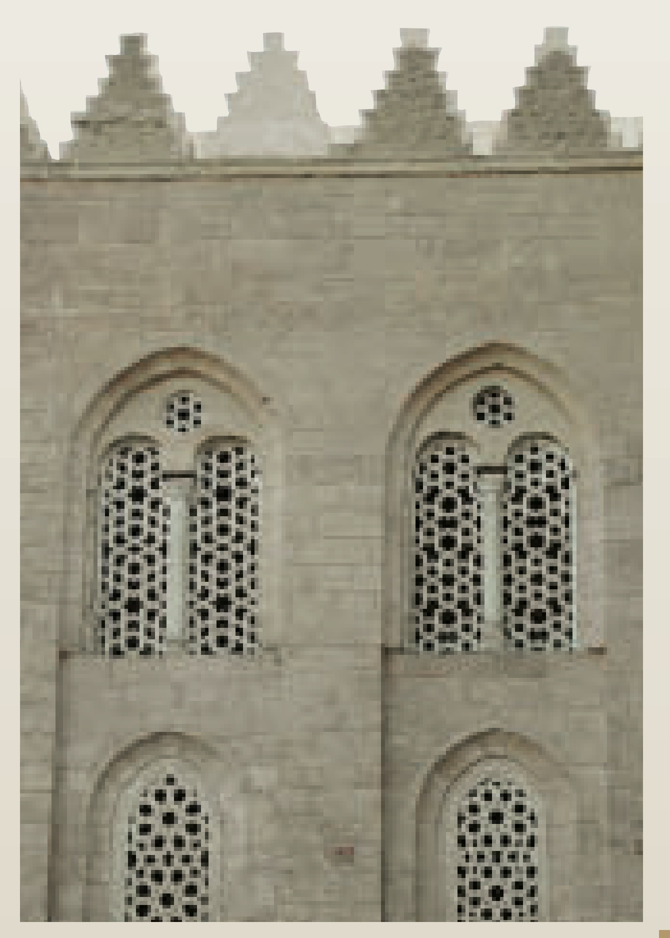
الأشرف خليل (1289م - 1293م)

هو الملك (الأشرف صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور قلاوون). تولى الملك بعد وفاة أبيه (المنصور قلاوون). كان ملكًا شجاعًا مقدامًا وعادلًا، تقاتل مع الصليبيين وفتح كثيرًا من البلدان مثل عكا وصيدا وبيروت وقلعة الروم وصور وأنشأ القاعة الأشرفية بقلعة الجبل. وقد استكمل مهمة أبيه في القضاء على الصليبيين وهزمهم وفتح عكا آخر معاقل الوجود الصليبي في فلسطين. اشترى حوالي ألفي مملوك وعرفوا بالأشرفية نسبة إليه. من مساوئه أنه قتل كثيرًا من الأمراء الذين كانوا يخالفون سياسته، فقتله أمراؤه بعد ثلاث سنين من توليه الحكم.

الناصر محمد بن قلاوون (1293-1341 م)

هو الملك (الناصر محمد بن المنصور قلاوون) تولى العرش وعمره تسعة أعوام فخلع عن الحكم مرتين:

- المرة الأولى حكم لمدة خمس سنوات وكان الوصي عليه الأمير (كتبغا) فحدثت فتن كثيرة، وعزل الناصر محمد، وتولى (كتبغا) الحكم.
- وفي المرة الثانية حكم (الناصر محمد) لمدة سنة واحدة



شبابيك مجموعة قلاوون

ولم يكن له من الأمر شيء وعزله المماليك مرة أخرى وحكم محله الملك المعظم (ركن الدين بيبرس الجاشنكير) وكان العامة يطلقون عليه (ركين) وحدث جفاف شديد في حكمه بسبب نقص منسوب مياه النيل في عصره.

– عاد (الناصر محمد) مرة ثالثة للحكم واستمر فيه (32) عامًا. تقاتل (الناصر محمد) مع التتار في معركة (مرج راهط) وانتصر عليهم. كان الملك الناصر محمد ضئيل الجسم لكنه كان قويًا وكان محبوبًا جدًّا من عامة الناس وقد بلغ عدد مماليكه الخاصة (12,000) مملوك. ويعتبر عصره من أزهى عصور المماليك البحرية ويتسم بالاستقرار والهدوء والرخاء وتقدم العلوم والفنون والعمارة الإسلامية.

أهم أعماله

– فرض ضريبة على التجارة التي تمر في مصر من أوروبا إلى الهند بنسبة 15 ٪ فعم الرخاء والغنى.
– ضبط الموازين والمقاييس.
– ألغى كثيرًا من المكوس عن الفقراء وزودها على الأغنياء.
– اهتم بالعلم وبنشر التعليم.
– شيد عددًا كبيرًا من المباني الفخمة.

عدله

كان (الناصر محمد) يجلس للنظر في مظالم الناس كل يوم اثنين وخميس، ويجلس قضاة المذاهب الأربعة على يساره.[1]

قصة

وقد خرج الناس وتجمعوا في ميدان الرميلة تحت القلعة مطالبين بعودة الناصر محمد للحكم؛ لأنهم كانوا يحبونه حبًّا شديدًا وكانوا يغنون: «**سلطاننا ركين ونائبو دقين، يجينا الماء من أين، هاتوا لنا الأعرج، يجي الماء يدحرج**».

ولما علم السلطان (بيبرس الجاشنكير) بالأمر قبض على (300) شخص لمعاقبتهم.

«**سلطاننا ركين**»: بيبرس الجاشنكير

«**ونائبو دقين**»: نائبه سلار كان العامة يطلقون عليه دقين لأن ذقنه كان قليل الشعر.

«**يجينا الماء من أين**»: الجفاف

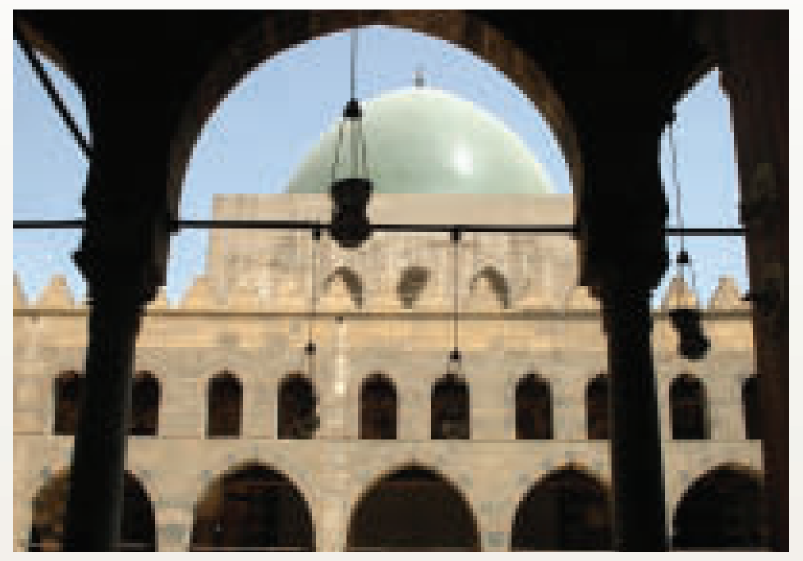
«**هاتوا لنا الأعرج**»: الناصر محمد بن قلاوون

«**يجي الماء يدحرج**»: يعم الخير[2]



(1) رحلات ابن بطوطة، ص65.
(2) بدائع الزهور، ص187.

بهو الأعمدة لجامع الناصر محمد بن قلاوون



قبة جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة

أهم منشآته

الميدان الناصري: وكان مخصصًا لسباق الخيول التي كان يحبها.

القصر الأبلق في القلعة: أحضر له أمهر الصناع من دمشق، واجهة القصر مكونة من شرائط صفراء وسوداء على التوالي؛ لهذا سمي بالأبلق.

جامع الناصر محمد: في القلعة ولا يزال قائمًا إلى اليوم.

الإيوان: وقد زال تمامًا وكان يقع مكان مسجد محمد علي الآن.

أنشأ قناطر للمياه بين القلعة والنيل.

حفر ترعة تصل بين النيل والإسكندرية.

الملك الناصر أبو المحاسن (السلطان حسن) (1347م - 1360م)

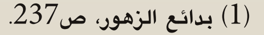


ميضأة جامع ومدرسة السلطان حسن

هو الملك (الناصر أبو المحاسن حسن) ابن الملك (الناصر محمد بن قلاوون) تولى وعمره ثلاث عشرة سنة وكان اسمه سيدي قماري لشدة حسنه. ولما تولى السلطنة طلب من الأمراء أن يطلقوا عليه (سيدي حسن) فقال الأمراء «على بركة الله تعالى» وألبسوه خلعة السلطنة.[1] حدث طاعون رهيب بمصر في حكمه كما حدثت أيضًا فتنة يقودها (الأمير طاز) وجماعة من الأمراء. قبض (الأمير طاز) وأمراؤه على (السلطان حسن) وحبسوه بالقلعة وعزلوه عن الحكم وولوا شقيقه صالحًا بدلًا منه ثم أعادوه للحكم مرة أخرى بعد ثلاث سنوات. عظم شأن السلطان حسن بعد عودته للحكم واشترى عددًا كبيرًا من المماليك وبنى جامعه المشهور وهو تحفة معمارية.

قصة

منع السلطان حسن النساء من ارتداء الأخفاف (الأحذية) المزخرفة التي تلفت الأنظار، كما منعهن من خياطة الأكمام الواسعة في ملابسهن.[2]



(1) بدائع الزهور، ص237.

(2) بدائع الزهور، ص242.

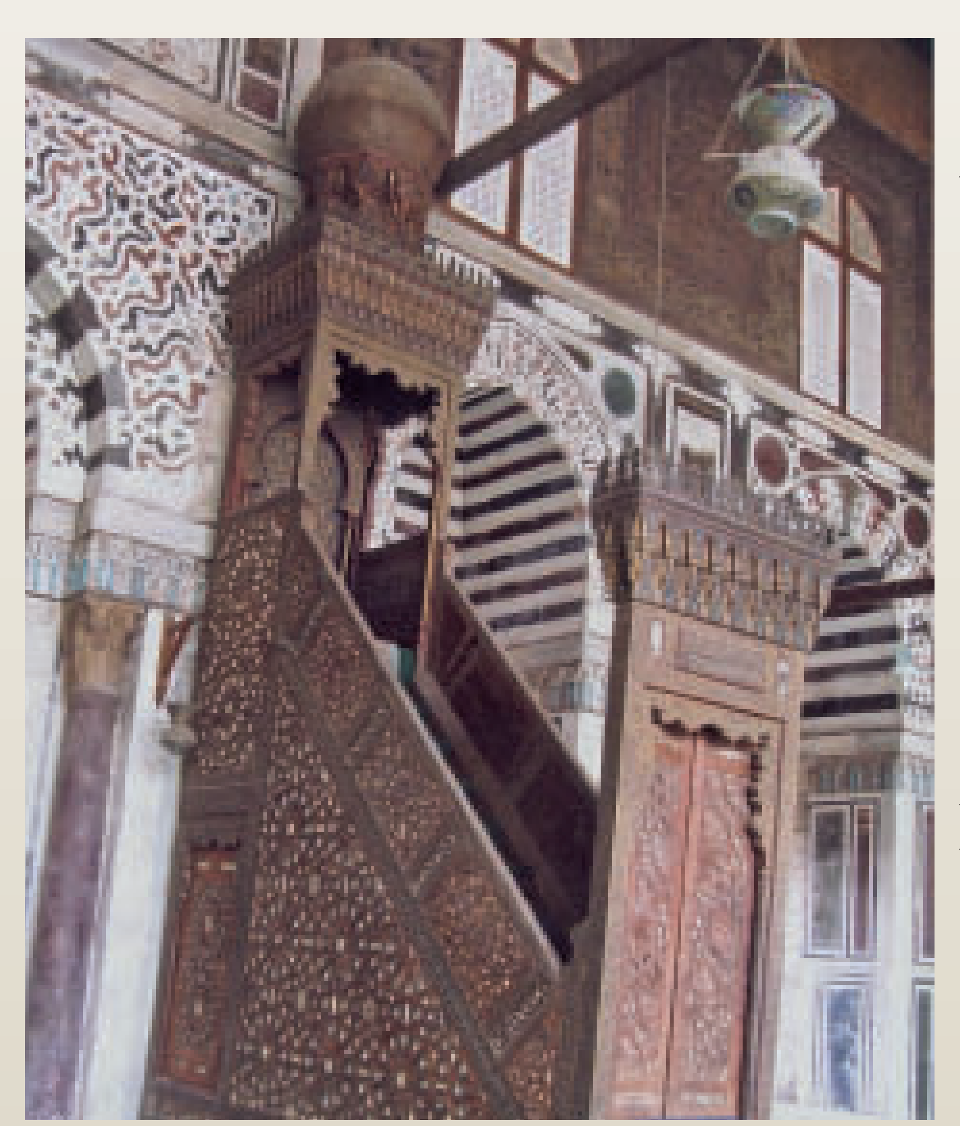

زخارف رخامية من جامع السلطان حسن

الطاعون أو (الفناء الكبير) (1348)

هو وباء اجتاح مصر في عصر (السلطان حسن) وكان ضمن موجة وبائية عالمية امتدت من أقصى الشرق حتى أوروبا. وكان عدد حالات الوفيات يبلغ من (10,000) إلى (20,000) حالة يوميًّا. تسبب الوباء في حدوث نقص كبير في عدد سكان مصر ففقدت ثلثي سكانها حتى قيل إن الشوارع كانت خالية ومات (900,000) تسعمائة ألف شخص. إجمالاً خلت البيوت من السكان وتوفي ألف مملوك من الجيش وخلت (40) قرية من أهلها ومات الفلاحون ولم تزرع الأراضي في هذه السنة حتى وصل سعر أُقة (حوالي 2,25 كيلو) القمح إلى (200) درهم وخرج الناس يدعون الله في الصحراء أن يخفف الوباء.[1]

الملك الصالح صلاح الدين (1351 م)

هو (الملك الصالح صلاح الدين صالح ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون) تولى السلطنة بعد أخيه (الملك الناصر حسن). قام (الأمير طاز) وكان دوادارا أي (سكرتيرًا) بخلع (السلطان حسن) وولى أخاه (الملك الصالح) الحكم بدلًا منه. وأصبح طاز هو الحاكم الفعلي المتصرف في أمور البلاد ولم يكن (للملك الصالح) أي سلطة على الإطلاق. فغضب الأمراء ونشأ خلاف بينهم وبين طاز وقد اغتنموا فرصة خروجه في رحلة صيد فذهب الأمير (شيخو العمري) ومعه جماعة من الأمراء وهجموا على السلطان (الملك الصالح) وخلعوه من الحكم بعد ثلاث سنوات وأعادوا الملك (الناصر حسن) للحكم وقبضوا على طاز وتم سجنه في القلعة.[2]


المنبر الخشبي لجامع الناصر محمد بن قلاوون

(1) بدائع الزهور، ص239 - 240.
(2) بدائع الزهور، ص243 - 254.

نهاية دولة المماليك البحرية

نتيجة ضعف أبناء (الناصر محمد بن قلاوون) وصغر سنهم استفاد من الضعف والصراعات المماليك البرجية الذين جلبهم (المنصور قلاوون) وأسكنهم أبراج القلعة فعزلوا (الملك الصالح زين الدين حاجي بن شعبان) آخر سلطان في سلالة قلاوون وقضوا على دولة المماليك البحرية.

وكان سلاطين المماليك البحرية قد اشتروا كثيرًا من المماليك وأسكنوهم في أبراج القلعة؛ ولذلك عرفوا بالمماليك البرجية فلما ازداد عددهم وقوتهم نزعوا السلطة من أيدي أسيادهم وكانت دولتهم تُعد امتدادًا لدولة المماليك البحرية. ومن سمات عصرهم عظمة منشآتهم وقصر فترة حكم سلاطينهم ماعدا عددًا قليلًا منهم مثل برقوق وقايتباي وجقمق وبرسباي والسلطان الغوري.

ثانيًا: سلاطين المماليك البرجية

الملك الظاهر سيف الدين برقوق (1382م)

هو الملك (الظاهر سيف الدين برقوق)، تزينت القاهرة سبعة أيام فرحًا عند توليه العهد، كان جركسيًّا من مماليك الأتابكي (يلبغا العمري) الذي أعتق برقوق. وترقى فصار أميرًا على عشرة من المماليك ثم أصبح أميرًا على مائة من المماليك حتى وصل قائدًا للجيوش في أيام الملك (المنصور علي ابن السلطان شعبان). (1376م) استولى برقوق على العرش بعد عزل آخر سلطان من المماليك البحرية (الملك الصالح زين الدين حاجي بن شعبان). ويعتبر برقوق هو مؤسس دولة المماليك الجراكسة ولقب (بالظاهر برقوق). وقد حكم لمدة ست سنوات ثم خلع وعاد للحكم مرة ثانية وكان فارسًا شجاعًا، فصيح اللسان وقد شهد عصره انتعاشًا ثقافيًّا وفنيًّا وكان محبوبًا من عامة الناس. تقاتل مع قائد المغول (تيمورلنك) ولكن حدثت فتنة كبيرة جدًّا في عصره سميت (بفتنة منطاش) وقد توفي السلطان برقوق وعمره ستون عامًا.



خانقاه السلطان فرج بن برقوق

هيئته

كان برقوق معتدل القامة، عريض الكتفين، جميل الملامح ذا لحية كَثَّة خطَّها الشَّيب.

مراسم تنصيبه

كانت مراسم التنصيب أي تولية الحكم للسلطان المملوكي تتم في احتفال كبير، يحضره الخليفة العباسي والقضاة وكبار الأمراء ويجلس السلطان على كرسي الملك مرتديًا عمامة سوداء وجبة سوداء مطرزة بخيوط الذهب ويكون متقلدًا سيفه. ويقوم الأمراء بمبايعته بالخلافة ثم يدور منادٍ في شوارع القاهرة معلنًا تنصيب السلطان الحكم.

يسرد لنا (ابن إياس) مراسم تنصيب السلطان برقوق على العرش فيقول: «بايعه أمير المؤمنين (المتوكل) بحضرة القضاة الأربعة». وأحضروا له خلعة السلطنة وهي جبة سوداء وشاش أسود ملفوف عمامة ووضعوا القبة والطير على رأسه وتلقب بالملك الظاهر. وجلس على سرير الملك ونودي باسمه في القاهرة، وضج الناس له بالدعاء من العام والخاص.[1]

فتنة منطاش

قامت فتنة كبيرة في زمن السلطان برقوق تُسمى بفتنة منطاش، وقع خلاف كبير بين أمير يدعى (منطاش) وكان مملوكًا لبرقوق وقائد للجيوش يدعى (يلبغا الناصري) وقامت بينهما صراعات كثيرة. وتقاتلوا بالحجارة والمقاليع (آلة ترمى بها الحجارة) والمكاحل (المدافع) وقد وصل عدد جيش منطاش إلى خمسمائة مملوك، ودام القتال بينهما زمنًا طويلًا. ومن الناحية الأخرى ساءت العلاقة بين منطاش وبرقوق عندما كان منطاش مملوكًا لبرقوق، فقام بأعمال سيئة فعاقبه برقوق بالضرب ونفاه إلى الشام، فانقلب منطاش ضد برقوق. وقامت معارك كثيرة في الشام بينهما، وانهزم منطاش ولكنه استطاع الهروب. قبض السلطان برقوق على (يلبغا الناصري) وعلى (23) من أمرائه وسجنهم بقلعة حلب ثم قتلهم كلهم. وأخيرًا تم القبض على منطاش وانتهت الفتنة وقد تزينت القاهرة بعد القبض عليه لمدة سبعة أيام فرحًا بنهاية الفتنة.[2]



سبيل كتاب خانقاه فرج بن برقوق

(1) بدائع الزهور، ص324.

(2) بدائع الزهور، ص348 - 350.

وفاة برقوق

مات (الظاهر برقوق) ولم يدفن في الضريح الذي أقيم له في القرافة، بل دفن في الصحراء مع الصوفية والفقراء كما أراد. وقد حزن الناس لموته حزنًا شديدًا ونفذ المماليك وصيته بتقليد ابنه فرج السلطنة من بعده.



شباك من الزجاج الملون مدون عليه (الظاهر برقوق)

قصة

غير الناس اسم فاكهة البرقوق في أيام حكمه تعظيمًا له وأطلقوا عليها اسم (شقير).[1]

تيمور لنك

هو قائد مغولي كبير من أحفاد (جنكيز خان) فرض نفوذه على بلاد ما وراء النهر وخراسان واستولى على بغداد. وقد خاض حروبًا كثيرة ضد المماليك حتى موته.

فرج بن برقوق

هو (الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج) تولى الحكم وعمره اثنتا عشرة سنة بعد وفاة أبيه برقوق. هجم تيمور لنك على الجيش المملوكي وألحق به هزيمتين بعد موت برقوق فخرج السلطان فرج إلى الشام لمحاربته ولكنه هزم، ولكن المماليك استطاعوا خلع فرج وتعيين أخيه مكانه، ثم عاد فرج للحكم مرة ثانية.



(1) بدائع الزهور، ص323.



المؤيد شيخ (1412 م)

هو (الملك المؤيد أبو النصر شيخ بن عبد الله المحمودي الظاهري) كان من مماليك (الظاهر برقوق) اشتراه من تاجر المماليك (الخواجا محمود شاه) وأعتقه. تم القبض عليه خلال فتنة منطاش وسجن في خزانة شمايل وبعد نهاية الفتنة خرج وتقلد مناصب كثيرة فصار جمدارًا وساقيًا وأمير أربعين، ثم عين نائبًا على الشام وطرابلس في حكم (فرج بن برقوق). بويع بالسلطنة بعد خلع (الخليفة العباسي) وتلقب بالملك المؤيد وكان سلطانًا قويًّا وكريمًا. في بداية حكمه حدثت اضطرابات، فقد انخفض منسوب النيل، فحدث جفاف ومجاعات شديدة وتبعها انتشار وباء (الطاعون الكبير).[1]

خزانة شمايل

سجن المؤيد وهو مملوك في سجن يطلق عليه (خزانة شمايل) قاسى فيه الشدائد. كان سجنًا مظلمًا تحت الأرض مملوءًا بالحشرات والروائح الكريهة وقيدت فيه يداه وساقاه ورقبته بالسلاسل الحديدية المثبتة في الحائط. عاهد المؤيد الله عز وجل أنه لو أصبح سلطانًا على مصر فسوف يهدم السجن ويبني مكانة جامعًا، وعندما أصبح سلطانًا لم ينس عهده وهدم السجن وسارع ببناء جامع مكانه.[2]

افتتاح الجامع

يقع جامع المؤيد ملاصقًا لباب زويلة وعند اكتمال بنائه أمر المؤيد بأن تملأ الفسقية في صحن الجامع سكرًا وماءً وليمونًا ووقف النواب يوزعون السكر على الناس بالطاسات فرحة بانتهاء بناء الجامع. ومنح هبات كثيرة للمهندسين والنجارين والبنائين الذين شيدوا الجامع.[3]

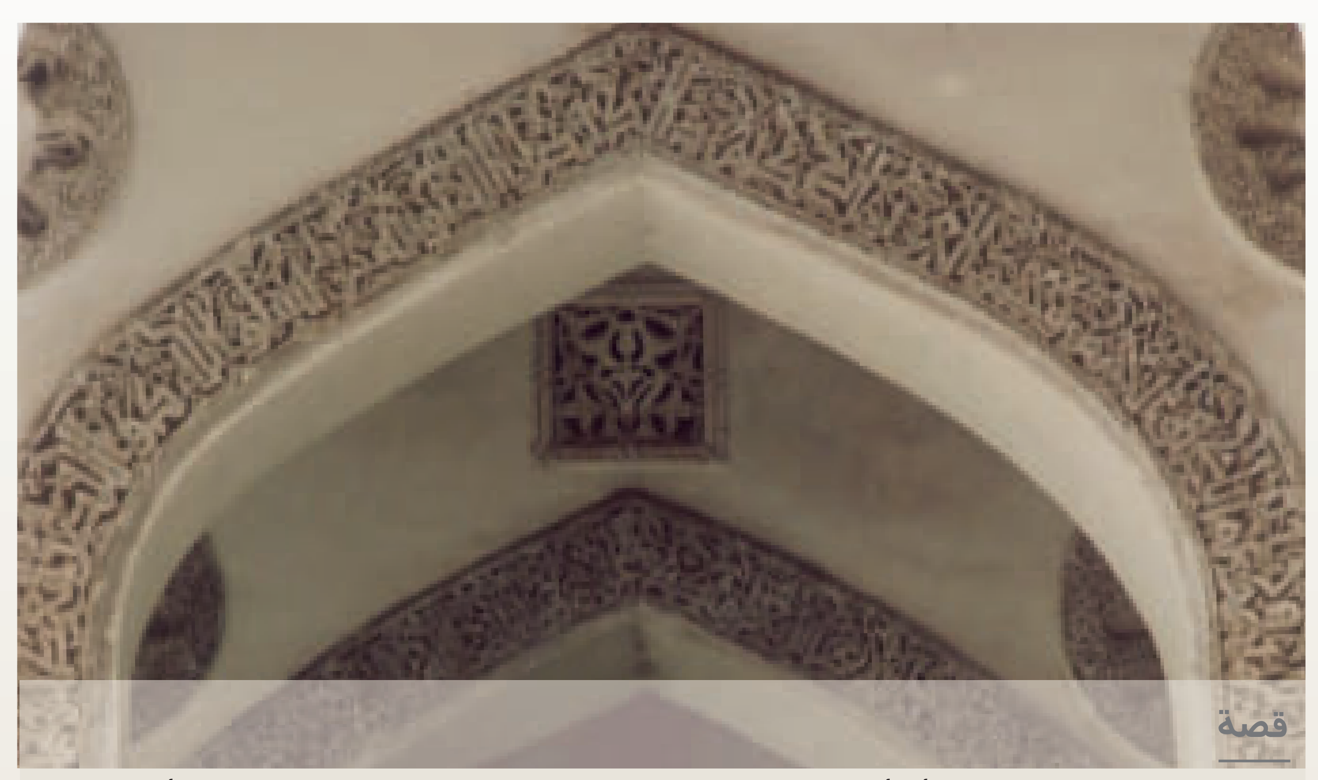


ميضأة جامع المؤيد

(1) بدائع الزهور، ص445.

(2) بدائع الزهور، ص450.

(3) بدائع الزهور، ص451.



قصة

هناك قصة تروى عن المؤيد وهي أنه أصاب مصر وباء الطاعون الكبير في عصره، فلبس ملابس الدراويش أي الصوفيين الزاهدين وكانوا يلبسون ملابس مصنوعة من الصوف، وخرج في حاشية كبيرة واصطحب معه العلماء رافعين المصاحف والقساوسة حاملين الأناجيل واليهود حاملين التوراة حتى وصلوا إلى ضريح السلطان برقوق وفرَّق المؤيد 30,000 رغيف من اللحم على الفقراء ليرفع **الله** الكرب.ثم سجد المؤيد وحاشيته وصلوا صلاة الاستسقاء على الرمال وأخذوا يدعون ويتضرعون إلى **الله** طالبين أن ينزل المطر وأن يرفع عنهم وباء الطاعون.

هيئته

كان معتدل القامة واسع العينين، وكان يتمتع بشكل حسن، وله لحية كثيفة.

شعر المؤيد

كان المؤيد يحب اللهو والطرب والفنون ويحب الموسيقى والشعر وقد كتب شعرًا كثيرًا تغنى به المغنون في عصره مثل:

وأنا الخاصكي شيخ المؤيد   نظم شعري جواره وعقوده

الطاعون الكبير

اجتاح وباء الطاعون الكبير مصر وأصاب جميع الكائنات الحية؛ الإنسان والأسماك في البحار والطيور في السماء والوحوش في البرية. وكان الناس يكتبون أسماءهم فوق أذرعهم حتى إن سقطوا موتى في الشوارع يتم التعرف عليهم ونتيجة لذلك ساءت أحوال البلاد الداخلية.(1)

قبرص

صارت قبرص مركزًا للقرصنة الصليبية أي مركزا للسطو على سفن المسلمين التي تمر في البحر المتوسط تحت قيادة (آل لوزينيان). وأصبحت قبرص قاعدة للصليبيين بعد طردهم من الشام (1365م) وأخذوا يهددون سفن التجار المسلمين.

---

(1) **بدائع الزهور، ص**449.

الأشرف برسباي (1422م - 1438م)

هو الملك (الأشرف أبو النصر برسباي) أصله جركسي اشتراه (الأمير دقماق المحمدي) وأعطاه لـ (الملك الظاهر برقوق) وقد تقلد مناصب كثيرة مثل ساقي وأمير طبلخانة ثم ازداد نفوذه فخلع (الملك الصالح محمد) وأصبح سلطانًا. استقرت أحوال مصر في عصره وكان ملكًا عادلًا كثير البر والصدقات محبًّا للشريعة الإسلامية وللعلماء. كان قويًّا شديد البأس فلم تحدث فتن في عهده، وقد حكم حوالي ست عشرة سنة. زاد لصوص البحر من الهجوم على مصر من جزيرة قبرص واستولى الفرنج على مركبين للمسلمين وبهما مائة مسلم واستولى (جانوس لوزينيان) ملك قبرص على مركب للسلطان برسباي. فأرسل برسباي أسطولًا فضرب قبرص واستولى عليها وأتى بملكها جانوس أسيرًا إلى مصر (1424م) وقد بقيت قبرص في يد مصر حتي عام (1517م) وهو نهاية عصر المماليك.[1] ولكن حدث طاعون شديد في عصره، فهلك كثير من الناس. وقد تولى بعده سلاطين ضعاف.

هيئته

كان أبيض اللون، طويل القامة، حسن الطلعة.

أهم أعماله

- فترة حكمه عصر استقرار وسيادة مصرية واسعة على البحر المتوسط.
- اهتم برسباي بالتجارة وخاصةً مع الهند.
- احتكر تجارة السكر والفلفل والأخشاب.
- بسط سيادته على ميناء جدة وموانئ البحر الأحمر بعد فتح قبرص (1426م).
- أعاد حفر خليج الإسكندرية.
- بعث لقبرص ثلاث حملات بحرية وهزمهم.

ولكن برسباي اتخذ قرارات عجيبة في آخر أيام حكمه:

- منع النساء من الخروج من البيوت مطلقًا.[2]
- منع الفلاحين من لبس الزمط وهو عبارة عن طاقية حمراء.

السلطان الظاهر جقمق (1438 – 1453)

هو (الملك الظاهر سيف الدين أبوسعيد جقمق العلائي الظاهري) كان جركسي الجنس، من سلاطين (الظاهر برقوق) وقد حكم بعد (الملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباي). أرسل ثلاث حملات بحرية ضد جزيرة رودس التي كانت أيضًا مركزًا للصليبيين إلا أنهم فشلوا في تحقيق أهدافهم وتم عقد صلح في النهاية بين الطرفين. وفي عصره تحسنت العلاقات بين المماليك والمغول.

(1) تحفة الناظرين، ص109.

(2) بدائع الزهور، ص496.

الأشرف قايتباي (1468م - 1496م)

هو الملك (الأشرف أبو المنصور سيف الدين قايتباي) أطول ملوك دولة المماليك البرجية حكمًا. كان جركسي الجنس وكان مملوكًا للسلطان برسباي وترقى لمنصب (دوادار) أي كاتب ثم أصبح قائدًا للجيوش. كان سلطانًا عظيمًا شهمًا وشجاعًا، بدأ في عهده ظهور أطماع العثمانيين للاستيلاء على مصر. كان قايتباي سلطانًا قويًّا، ولكنه خاض حروبًا كثيرة فاضطر إلى زيادة الضرائب على الناس ليغطي نفقات الحروب. كان عصره عصر قوة وازدهار و استقرار داخلي للبلاد.

وكان قايتباي محبًّا للعمارة، فأنشأ مباني رائعة الجمال ولكن أصاب البلاد في عصره (1492م) وباء شديد وقحط وساءت العلاقة بينه وبين الدولة العثمانية وقد حكم البلاد لمدة تسعة وعشرين عامًا.[1]



نقش على مدخل سبيل كتاب قايتباي يحمل اسمه وهو «أبو النصر قايتباي عز نصره»

خلد اسمه بالمنشآت الكثيرة ومن ذلك أنه:



- بنى قلعة قايتباي في الإسكندرية مكان منارة الإسكندرية القديمة في جزيرة فاروس.
- بنى ثلاث وكالات.
- بنى كثيرًا من المساجد والمدارس والقصور.
- بنى مشهد قايتباي في الصحراء.



قصة

يروى أن أحد الشيوخ الصالحين رأى في المنام رؤية لقايتباي قبل أن يتولى السلطنة وهي أن هناك شجرة، بها ثمرة رمان واحدة فقط وأن قايتباي يهم بقطفها. وكان تفسير الرؤيا أن قايتباي سوف يكون له شأن عظيم، فطلب قايتباي من الشيخ ألا يقص رؤياه على أحد؛ إذ كان سلاطين المماليك يتخلصون من المماليك الأقوياء الذين يهددون عرشهم.

طريق رأس الرجاء الصالح

في (1496م) عرف البرتغاليون بقيادة فاسكو دي جاما، بمساعدة أحد البحارة العرب، (الذي لم يدرك قصد البرتغاليين والذين كانوا يعرفون هذا الطريق البحري جيدًا، الهند والشرق الأقصى بالدوران حول إفريقية، دون المرور في البحر المتوسط والبحر الأحمر، ويعرف الطريق باسم (رأس الرجاء الصالح). تسبب هذا الكشف في خسارة مالية لمصر، فقد كانت التجارة تمر عبر مصر ويتم تحصيل ضرائب عليها أثناء مرورها ما بين أوروبا والهند، فلما تم اكتشاف هذا الطريق تحول التجار إليه، وفقدت مصر هذا المورد المهم.

(1) بدائع الزهور، ص558 - 559.

العثمانيون

في الشمال ظهر خطر جديد يتمثل في العثمانيين، منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر، نشأت الدولة العثمانية واتخذت مدينة (بورصا) بآسيا الصغرى عاصمة للحكم. استولت على القسطنطينية (1453م) وأسقطت الإمبراطورية البيزنطية واقتربت من حدود دولة المماليك وبدأ التوتر يزداد بين الدولتين، فنشبت معركة (مرج دابق) (1516م) بين السلطان العثماني (سليم خان الأول) والسلطان المملوكي (قنصوه الغوري).

السلطان قنصوه الغوري (1501م- 1516م)

هو الملك (الأشرف أبو النصر قنصوه بن بيبردي الغوري الأشرفي). كان جركسي الجنس وكان من مماليك الأشرف قايتباي الذي أعتقه. ترقى في المناصب حتى أصبح رأس نوبة وأميرًا (دوادار) كبيرًا، وقد اختاره الأمراء لتولى السلطنة بعد (الملك العادل).

امتناعه عن قبول السلطنة

اختار الأمراء (قنصوه الغورى) ليتولى الحكم فرفض وامتنع. رأى الأمراء أن قنصوه هو أصلح شخص للسلطنة فأحضروا القاضي الشافعي والقاضي الحنفي وألحوا عليه أن يقبل وبايعوه بالخلافة وأحضروا له شعار السلطنة وهو الجبة والعمامة السوداء ولقبوه بأبي النصر.[1]

حكمه

كان قنصوه الغوري ملكًا قويًا ذكيًا وشجاعًا، كان محبًّا للعمارة ومولعًا بالحروب، وكان يريد توسيع نطاق دولته. كانت خزانة الدولة فارغة عند توليه الحكم بسبب اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح (1497م) فتحولت معظم تجارة الهند والشرق إلى أوروبا مرورًا بهذا الطريق، فنقص بذلك دخل مصر كثيرًا. عمل السلطان الغوري على ملء الخزائن فزود الضرائب على الناس، فشق ذلك عليهم.[2]

أهم أعماله

- مهد طريق الحج.
- حصن السواحل.
- قام بترميم قلعة قايتباي.
- حصن الإسكندرية ورشيد وغيرهما.
- زاد في مباني القلعة واشترى عددًا كبيرًا من المماليك.
- أنشأ أسطولًا مكونًا من خمسين سفينة.
- بنى مجمعه المشهور (مجمع الغوري) وهو عبارة عن قصر وجامع وسبيل كتاب ووكالة.
- في عهده أغار الأتراك العثمانيون على الشام بقيادة السلطان العثماني (سليم خان الأول) فخرج إليهم السلطان الغوري بجيش كبير فهزم في موقعة (مرج دابق) شمال حلب وقتل نتيجة خيانة (خاير بك) والي حلب بالشام (1516م) بعد أن حكم مصر ما يزيد على (15) سنة واستولى سليم الأول على الشام ومصر.

(1) بدائع الزهور، ص 965.

(2) تحفة الناظرين، ص111.

طومان باي

هو آخر سلاطين المماليك (الأشرف أبو النصر طومان باي) اشتراه الأشرف (قنصوه الغوري) لأنه كان قريبه. عرف عن طومان باي الشجاعة والذكاء والعدل، بعد موقعه (مرج دابق) ازداد الخلاف بين المماليك على من يخلف السلطان الغوري فوقع اختيارهم على طومان باي. كانت الأوضاع سيئة وخزانة الدولة فارغة فاضطر (طومان باي) لقبول السلطنة بعد إصرار المماليك. دامت فترة حكمه ثلاثة شهور فقط، بذل فيها كل ما في وسعه لتنظيم قواته للدفاع عن مصر. طلب منه السلطان سليم الأول التسليم فرفض وخاض ضده (معركة الريدانية) التي انتهت بهزيمة (طومان باي) ودخل العثمانيون إلى القاهرة. أمر (سليم خان الأول) بشنق (طومان باي) وقادوه إلى باب زويلة سائرًا على قدميه وخرج الناس لرؤيته وكان شجاعًا يلقي السلام على الناس ثم قرأ الفاتحة لنفسه وشنق على باب زويلة (1517م) وكان الناس يبكون حزنًا عليه في الشوارع. ومنذ ذلك الوقت صارت مصر ولاية عثمانية.[1]

باب زويلة

أنشئ باب زويلة في عصر (الدولة الفاطمية) وكان البوابة الجنوبية لمدينة القاهرة. وفي العصر المملوكي استخدم هذا الباب لصلب وتعليق رءوس المجرمين فوقه ليكونوا عبرة للناس. أول حادثة صلب على باب زويلة تمت سنة (1263م) عندما هجمت مجموعة من المماليك على اصطبلات في القاهرة وسرقوا عددًا من الخيول فتم القبض عليهم وطافوا بهم في شوارع القاهرة وصلبوهم على باب زويلة. كان باب زويلة هو مدخل شارع القصبة وهو أكثر الشوارع التجارية ازدحاما وكان المارة يشاهدون هذه الحوادث فيخافون ويتعظون. أشهر من تم شنقه على باب زويلة هو السلطان (طومان باي).

نظام الطبقات

كان هناك نظام يسمى (الطبقة) وهي الثكنات التي تشبه الكليات العسكرية الآن. يتم وفقه تقسيم المماليك لمجموعات، كل مجموعة من نفس البلد، يدخلون في نفس الطبقة. وكان هناك معلمون متخصصون في تعليم المماليك طرق الحرب ودراسة الأدب والشعر والدين والفروسية.

(1) تحفة الناظرين، ص112.

مئذنتا جامع المؤيد فوق باب زويلة

ما هي الفروسية؟

- ركوب الخيل.
- الرمي بالقوس.
- الطعن بالرماح.
- الضرب بالسيف.
- الكر والفر، أي كيفية الهروب وتكرار الهجوم.

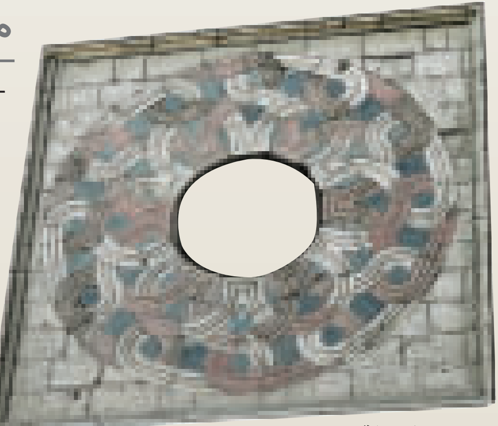


زخرفة نباتية على قبة مشهد برسباي

كان يشرف على المماليك مشرفون يطلق عليهم لقب الأغوات أي (الإخوة الكبار)، وكانت سلطتهم كبيرة، وكان يجب على المماليك طاعتهم واحترامهم. وكان يطلق على كل طبقة اسم المشرف عليها أما المشرف العام على كل الطبقات فيطلق عليه (مقدم الطباق). كانت مدة الدراسة تتراوح ما بين خمسة أشهر إلى سنتين لا يسمح للمماليك فيها بالخروج وخاصة في الليل. وعندما ينتهي المملوك من تدريباته يتخرج من الطبقة وتكون أخلاقه قد تهذبت وتعلم تعاليم الإسلام والآداب والعلوم. بعد ذلك يعتق المملوك ويصير من الفرسان ويتم منحه قطعة من الأرض الزراعية تعود عليه بمرتب ثابت ويتم ذلك في احتفال كبير يطوف شوارع القاهرة في موكب، ثم يؤدي المملوك يمين الولاء لسيده.[1]

نظام الإقطاع المملوكي

كان المماليك يعيشون على إيراد الأراضي الزراعية الممنوحة لهم.
ويقوم نظام الإقطاع على تقسيم الأراضي الزراعية على المماليك بما يتناسب مع رتبهم العسكرية ليعيشوا من إيراداتها. كما كان المماليك يتلقون رواتب نقدية يعطيها لهم السلاطين وقد تقلدوا أعلى الوظائف في الدولة.



زخرفة رخامية من جامع السلطان حسن

مهمات المماليك

- تحملوا عبء الدفاع عن البلاد ضد الأخطار الخارجية.
- تولوا حماية عرش السلطان.
- تولوا المناصب العليا في الجيش والإدارة.

ما هي الأستاذية؟

يدين المملوك بالولاء للأستاذ، أي السيد الذي اشتراه، ويكون مستعداً للتضحية بحياته في سبيله.[2]

ما هي الخشداشية؟

كان يطلق على الزملاء من المماليك لقب الخشداشية، وتكون علاقة الصداقة والولاء والزمالة بينهم قوية.[3]

جنسيات المماليك

كان المماليك يُجلبونَ من بلدان كثيرة مثل بلاد القوقاز، فارس ،تركستان، وبلاد الروم ومن الأكراد.

ما الفرق بين العبد والمملوك؟

- المملوك هو من لم يُبع والداه رقيقين.
- العبد هو من بيع والداه كرقيقين.

---

(1) **الخطط المقريزية**، ص214.

(2) **عصر سلاطين المماليك**، ص37.

(3) **السلطان المنصور قلاوون**، ص389.

القاهرة المملوكية

كانت مدينة القاهرة هي العاصمة، وكانت تضم كل عواصم مصر الإسلامية السابقة فكانت تشمل (الفسطاط) التي بناها (عمرو بن العاص) (641 م) وتشمل (العسكر) التي بناها العباسيون (750م) ومدينة (القطائع) التي بناها أحمد بن طولون (870 م) والقاهرة الفاطمية التي بناها (جوهر الصقلي) (969م). كانت القاهرة هي مركز الدولة الإداري والسياسي وكان عدد سكانها كبيرًا وكانت شوارعها ضيقة مملوءة بالدكاكين على جانبي الطريق والدواب تمشي في كل مكان تنقل الناس من مكان إلى آخر. كانت تلك الشوارع ممتلئة بأناس من جنسيات مختلفة وكانت معظم أسواق القاهرة مغطاة. بدأ المماليك في تعمير مدينة القاهرة وامتد العمران إلى خارجها فاتسعت رقعتها وصارت تبهر العالم القديم.

وصف ليون الإفريقي للقاهرة

هو الرحالة (حسن الوزان الزياتي) المعروف بـ «ليون الإفريقي» ولد في غرناطة بالأندلس (1492م) وزار مصر (1517م) في نهاية العصر المملوكي في أيام حكم (السلطان قنصوه الغوري). وقد وصف القاهرة بأنها من أكبر مدن الدنيا وأروعها على الإطلاق.[1]

وصف ابن خلدون للقاهرة

جاء المؤرخ (ابن خلدون) ليقيم في القاهرة (1382م) في حكم (الظاهر برقوق) فانبهر بحضارتها وبمبانيها العظيمة وبأسواقها، ووصفها قائلًا: «فرأيت حاضرة الدنيا، وبستان العالم ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه،



(1) القاهرة، تاريخ حاضرة، (ص170).

وتضيء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطئ نهر النيل نهر الجنة، ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة وأسواقها تزخر بالنعم».[1]

الحكومة

السلطان المملوكي

هو الرئيس الأعلى للدولة، يتولى تعيين كبار الموظفين مثل نائب السلطان والمحتسب وناظر الديوان وينظر في المظالم ويوزع الأراضي الزراعية على الجنود.

الوظائف المختلفة داخل قصر السلطان

كانت الوظائف داخل القصر منظمة نظامًا دقيقًا:

حاجب الحجاب: يرتب مواعيد ومقابلات السلطان.

الأستادار: يشرف على بيوت السلطان ويمدها بالحوائج المهمة من مأكل ومشرب وأمتعة كما كان يتولى الإشراف على الخدم.



جامع ومدرسة السلطان حسن

الخازندار: مدير مخازن بيوت السلطان.

الجاشنكير: الذواقة الذي يتذوق الطعام والشراب الذي يعد للسلطان قبل أن يتناوله، حتى لا يدس للسلطان فيه سُم أو أي شيء مؤذٍ.

حرس السلطان: يحرس السلطان (المماليك السلطانية) وهم أعظم أمراء المماليك.

المهمندار: هو الذي يستقبل السفراء الوافدين للسلطان ويسهر على تلبية طلباتهم وراحتهم. وكانت التقاليد تقتضي أن يدخل السفراء الأجانب من باب الفتوح.

جمدار: حامل المرآة السلطانية.

الوظائف الهامة في الدولة

نائب السلطان: كان يطلق عليه (ملك الأمراء) وكان يشرف على شئون الدولة في غياب السلطان.

الوزير: يأتي في المنزلة الثانية بعد نائب السلطان وكانت الوزارة من أهم الوظائف، ولكن لطمع بعض السلاطين في تركيز السلطة في أيديهم تم إلغاء هذه الوظيفة في عصور كثيرة.

والي القاهرة: هو الذي ينفذ الأحكام ويطبق القانون ويعاقب المخطئين ويخمد الفتن. كما كان لكل إقليم والٍ يشرف عليه ليحفظ به الأمن والنظام.

أتابك العسكر: هو القائد العام لجيش الدولة، وكان يطلق عليه أتابك العسكر أي قائد الجنود، وأحيانًا كان يتولى مهمة الوصاية على الأمراء الصغار. ومعنى كلمة أتابك (أبو الأمراء).

طبردار: حامل فأس السلطان عند ركوبه في المواكب.

أمير سلاح: مدير مخازن السلاح.

أمير أخور: قائد عام.

دوادار: كاتب السر.

أمير مجلس: أمير الاستقبالات والاجتماعات.

رتب الأمراء

كان مسموحًا لأمراء المماليك بتكوين جيوش صغيرة خاصة بهم وكان عددها يختلف حسب رتبهم:

أمراء المئين مقدمو الألوف: يسمح للأمير بأن يكون له جيش خاص به عدده مائة فارس.

أمراء الطبلخانة: يكون للأمير جيش عدده أربعون فارسًا.

أمراء العشرات: يكون للأمير جيش عدده عشرة من الفرسان.

أمراء الخمسات: أولاد الأمراء، مسموح لهم بتكوين جيش عدده خمسة فرسان.[2]

(1) **القاهرة، تاريخ حاضرة**، (ص170).
(2) **عصر سلاطين المماليك**، ص34، 35.

الرنك

كان لكل سلطان ولكل أمير من المماليك شارة تسمى (رنك) يتخذها شعارًا خاصًا له وينقشها على منزله وأدواته وسلاحه والجامع الذي يشيده. كما كان هناك لكل وظيفة شعار خاص بها:

- كانت عصا البولو شعارًا للجوكندار.
- كانت الكأس شعارًا للساقي.
- اتخذ الظاهر بيبرس الأسد شعارًا له.
- اتخذ قوصون كأسًا حمراء شعارًا له (كان ساقيًا).
- اتخذ (الناصر محمد بن قلاوون) النسر شعارًا له.



عصا البولو شعارًا للجوكندار

الضرائب

المكوس ضرائب تدفع على الصناعة والتجارة.

والجزية ضريبة تفرض على الأراضي الزراعية.

الحقوق السلطانية هي ضرائب جديدة تم فرضها في عهد المماليك، ونتيجة للضرائب الكثيرة كان الباعة أحيانًا يرفعون أسعار السلع حتى يستطيعوا سداد الضرائب.



الكأس شعار الساقي

الجيش المملوكي

كان الجيش مكونًا من ثلاثة أقسام:

المماليك السلطانية: وكانوا يعسكرون بالقاهرة ويصحبون السلطان في حروبه وأسفاره وكانوا هم القوة الرئيسية في جيوش سلاطين المماليك وكانوا بمثابة حرس السلطان ويتقلدون أعلى الوظائف ويتلقون أفضل التدريبات.

جيوش الأمراء: كانت للأمراء الكبار وولاة الأقاليم جيوش صغيرة تتراوح أعدادها ما بين (300) و (800) مملوك وكانوا يقيمون خارج العاصمة.

أجناد الحلقة: كانوا يتألفون من المقاتلين الأحرار من أبناء المماليك (أولاد الناس) وبعض المصريين الذين انضموا إلى الجيش.

الأسطول

اهتم سلاطين المماليك بالأسطول لمواجهة أي عدوان يأتي عن طريق البحر مثل الخطر الصليبي في جزر البحر المتوسط الذي كان متمثلًا في رودس وقبرص في عصر ملوك (آل لوزنيان) الذين تبنوا مشروعات الصليبيين في الشرق وكانوا يهجمون على السفن المصرية في البحر المتوسط.

قطع الأسطول

- **الشواني**: هي مراكب لها مائة وأربعون مجدافًا وكان لها أبراج وقلاع.
- **البطس**: هي مراكب كبيرة تتسع لسبعمائة مقاتل، ولها أكثر من أربعين شراعًا.

- **الحراريق**: هي مراكب متوسطة الحجم، تتسع لمائة مقاتل، ولها مائة مجداف وبها نفاطات أي آلات تلقي بالنار على مراكب الأعداء.
- **الطرائد**: كانت مخصصة لنقل الخيول، وكانت تتسع لأربعين فارسًا.
- **الأغربة**: هي مراكب طويلة، لونها أسود وتشبه طائر الغراب، وتمتاز بسرعتها الكبيرة.
- **البراكيس**: هي مراكب صغيرة لنقل الماء.

السكة

السكة هي الدنانير والدراهم المتداولة بين الناس، وتكون العملات مزينة بصور ونقوش وكتابات. كان ينقش على وجه القطع النقدية اسم السلطان ولقبه ومكان الضرب وتاريخه وشعار السلطان الـ (رنك)، أما الظهر فكانت تنقش عليه عبارات دينية.

أولاد الناس

كان يطلق على أبناء المماليك الذين ولدوا في مصر ولم تمسهم العبودية والرق أولاد الناس.

دار الضرب بالقاهرة

- ضربت بها النقود لسد احتياجات الدولة الإسلامية من دنانير ذهبية ودراهم فضية وفلوس نحاسية.
- كانت المسكوكات الذهبية تضرب بمطرقة (الضرب).
- وكانت طريقة الصب أسهل وأسرع من طريقة الضرب.



عملة من زمن السلطان برقوق

دار الضرب بالإسكندرية

ضربت العملات الذهبية بهذه الدار منذ عهد السلطان المؤيد شيخ، كما ضربت بها العملات النحاسية. وكان ينقش فوق العملات (ضرب ثغر الإسكندرية).

كان يكتب على الوجه

ضرب القاهرة سنة أربع وثمانين وسبعماية

السلطان الملك الظاهر سيف

الدنيا والدين بوسعيد عن نصره

برقوق خلد الله سلطانة





وعلى الظهـــر

وما النصر إلا من عند الله

لا إله إلا الله محمد رسول الله

أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله[1]

(1) **السكة الإسلامية في مصر**، ص 50.

الحالة الاقتصادية

الزراعة

كانت الزراعة تعتبرمن مصادر الثروة الرئيسية، وكانت تتم مرة واحدة في السنة فقط. وهذا النظام كان يسمَّى (ريَّ الحياض).

الحاصلات الزراعية

كانت الأرض تنتج القمح، والشعير، والفول، والحمص، والبامية، والذرة، والجمين، والخيار، والفقوس (نوع من أنواع الكوسة)، والبطيخ، والتفاح، والليمون والباذنجان.



قطعة نسيج من الكتان

التجارة

كانت المراكب المحملة بالبضائع تأتى عن طريق نهر النيل من خلال فرع رشيد وفرع دمياط (أهم ميناء على البحر المتوسط). وكانت حركة السفن مستمرة طوال العام تحمل البضائع المختلفة من وإلى القاهرة، وكانت الجمارك تُحصَّل على التجارة الواردة من الهند والشرق إلى أوروبا والمارة عن طريق مصر.

التجار

كبار التجار: كانوا يتعاملون في السلع الثمينة مثل الأحجار الكريمة والجواري وكانوا يعرضون بضائعهم على السلاطين والأمراء، وكانوا في غاية الغنى والثراء.

صغار التجار: هم الباعة المختلفون من خبازين وعطارين وبائعي الحبوب وغيرهم وكانوا يبيعون للعامة من الناس.

أفران التفريخ

كان من العجائب التي اخترعها المصريون هذه الأفران الصناعية وكان يطلق عليها (معمل الفروج). والمعمل عبارة عن ساحة كبيرة بداخلها حوالي



خانقاه الظاهر فرج بن برقوق

عشرة بيوت في كل بيت ألف بيضة ويسمى (بيت الترقيد) ويتم وضع طين فوق أحجاره من داخله وخارجه، حتى لا يخرج منه بخار. وكان يتم تدفئة البيض وتفقيسه صناعيًا. ويتم إنتاج أكثر من خمسة آلاف بيضة كل ستة أيام وكانت مصر هي البلد الوحيد الذي يستخدم هذه الطريقة.[1]

المجتمع المصري

كان المجتمع المصري مكونًا من سبع طوائف:

- السلطان والأمراء.
- كبار التجار والأعيان.
- الفقهاء وطلاب العلم.
- الجنود.
- صغار التجار.
- الفلاحين وسكان القرى.

الأسواق

كان شارع القصبة هو أكبر وأهم الشوارع التجارية في القاهرة، وكان عدد المحلات فيه يبلغ (12,000) محلٍّ وكانت الأسواق مليئة بالحركة والنشاط وبأصناف مختلفة من البضائع والسلع. وكانت هناك أسواق متخصصة، يبيع كل منها سلعة معينة مثل:

- **سوق باب الفتوح**: ويوجد به لحم الضأن والبقري والخضراوات.
- **سوق حارة برجوان**: يوجد به الزياتون والجبانون والخبازون واللبانون والطباخون والشواءون والعطارون والخضريون.

وقد وجدت في القاهرة سوق لكل نوع من الاستخدامات مثل سوق الدجاجين والخلصيين والأبارين، والمرحلين، والكتبيين، والجلادين، والشماعين.

من الأحياء الشهيرة في القاهرة في عصر المماليك (حي الصاغة) حيث كان يباع مختلف أنواع الحلي المصنوعة من الذهب والفضة. كما كان للأسواق منافذ متعددة لتسهيل الخروج والدخول منها. وكانت أمام كل دكان مصطبة وهي مكان مرتفع ممهد للجلوس من الخشب، يجلس عليه البائع وهو يبيع للمشترين.



(1) الإفادة والاعتبار. ص 80.

الباعة الجائلون

كانوا يتجولون في الشوارع حاملين البضائع المختلفة فوق رءوسهم.

أرباب المقاعد

كان يطلق على الباعة الجائلين الذين يفترشون الأرض أرباب المقاعد. وكانوا يفترشون أرض السوق ويعرضون بضائعهم المختلفة.

سوق القفيصات

باعة معهم أقفاص صغيرة من الحديد يعرضون عليها الخواتم والخلاخيل.

وكالة الغوري

تعد هذه الوكالة مثالًا مهمًا للفندق التجاري في العصر المملوكي وقد حولتها وزارة الثقافة مركزًا للحفاظ على الحرف التقليدية، وتشمل مراسم للفنانين التشكيليين، ومراكز لتعليم الصبية الحرف التقليدية.

المحتسب

كانت الأسواق تخضع لإشراف المحتسب ويعاونه عريف. وكانت وظيفة المحتسب تعد من أشرف الوظائف الدينية. كان للمحتسب امتيازات كثيرة، فكان يحضر مواكب السلطان، وكان له نفوذ قوي. وكان يشرف على الأسواق ويمنع الغش في المكاييل والموازين ويوقع عقابًا شديدًا على المخالفين.

النظافة

كان الوالي يلزم الباعة بكنس الشوارع أمام دكاكينهم ورشها بالماء، وكان يعاقب المخالف. كان الباعة أيضًا يعلقون قناديل للإضاءة ليلًا على أبواب المحلات.



وكالة السلطان الغوري


مشكاة

وسائل المواصلات

كان ركوب الخيل مقتصرًا على السلاطين والأمراء والجيوش، أما العامة فكانوا يتنقلون على حمير وكانت هي وسيلة المواصلات الأولى التي ينتقل بها الناس داخل المدن وخارجها. وكانت هناك مواقف خاصة لاستئجار الحمير وكان يطلق على أصحاب الحمير (المكارية). يوجد منهم بالقاهرة (30,000) مكاري، كما كانت المراكب والقوارب تعتبر من وسائل المواصلات المهمة التي تربط بين أنحاء البلاد.

الإسطبل السلطاني

كان الإسطبل الذي يضم خيول السلطان يوجد داخل القلعة، وكان يحتوي على (3000) فرس. وكان هناك عمال مهمتهم غسل الخيول بصورة يومية وتدريبها وتجهيزها بالسروج واللجم الفاخرة.

الطعام والشراب

كان العامة من الناس يتناولون طعامهم في الأسواق في المطاعم المختلفة وكانت المطاعم نوعين:

المطابخ: هي محلات كانت تجهز فيها الأطعمة وتباع لعامة الناس.

الشرايحية: وكان الناس يرسلون إلى هذه المحلات ما يريدون طبخه من لحوم وخضراوات، ويقوم الشرايحية بخلطها بالتوابل ويطهونها ثم يرسلونها إلى البيوت في قدور مع صبيانهم مقابل أجر معين.


ترابيزة عشاء الناصر محمد بن قلاوون

ما أنواع الطعام التي كان يأكلها العامة؟

المطبخ المصري غني بأنواع الطعام المختلفة منذ أقدم العصور وكان العامة مغرمين بأكل:

- **الصحناة**: سمك صغير مملح.
- **الصير**: سمك صغير يسمى الملوحة.
- **البطارخ**: وهي بيض السمك المملح.
- **الأكارع**: وهي سيقان البقر والغنم.
- **النقانق**: السجق الذي يصنع من لحم الضأن.

كما أكل العامة اللحوم والطيور والخضراوات المختلفة وكان المصريون مغرمين بأكل الفواكه، وكانوا يأكلونها بعد الانتهاء من الطعام مثل الشمام والبطيخ.

الحلوى

- **الزلابية**: تصنع من الدقيق الذي يخمر ويقلى بالزيت وتؤكل بالعسل والسكر ونطلق عليها اليوم (لقمة القاضي) ولاتزال من الأكلات المحببة عند المصريين.

قصة

بعد مقتل السلطان (عز الدين أيبك التركماني) على يد زوجته (شجر الدر) أرادت زوجته الأولى وتدعى (أم علي) الانتقام لمقتل زوجها. فقامت بتدبير مكيدة انتهت بمقتل شجر الدر ضربًا بالقباقيب وقد وزعت (أم علي) لبنًا وخبزًا على الناس بعد وفاة (شجر الدر) فأصبحت أكلة شعبية يطلق عليها (أم علي) ولاتزال من الأكلات المفضلة للمصريين حتى اليوم.

وعاء من النحاس مطعم بالفضة

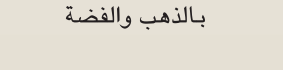
- **القاهرية**: نوع من الحلوى يصنع باللوز والعسل.
- **المشبك**: حلوى تصنع من الدقيق ومن العسل ولاتزال تباع في الأسواق حتى يومنا هذا.
- **الخبايص**: حلوى تصنع من الدقيق واللوز ويضاف إليها السكر والعسل.
- **المشاش**: عسل يطبخ ثم يوضع في إناء ليتجمد فيصبح حلوى.[1]

المشروبات

- الشرابي هو الرجل الذي كان يصنع الأشربة المختلفة.
- أحب العامة شراب الليمون السائل المضاف إليه السكر.
- وكان هناك شراب الورد العطري الذي يصنع من الورد.
- وكان هناك شراب التفاح الذي يصنع من عصير التفاح.
- وكان شراب العناب يصنع من ثمار شجرة العناب وهو أحمر اللون ولا يزال المصريون يعشقونه حتى اليوم وخصوصًا في فصل الصيف، حيث يضاف إليه الثلج.
- كما شرب العامة الفقاع، وهو شراب يستخرج من الشعير ويضاف إليه العسل.[2]

الخبز

كان الخبز يباع جاهزًا في الأسواق أو كان يعد في البيوت ثم يرسل إلى الأفران ليخبز مقابل أجر وكانت هناك أنواع كثيرة من الخبز مثل:


إناء من النحاس مطعم بالذهب والفضة

- خبز الحوارى: وكان يصنع من دقيق ناصع البياض.
- الكماج: خبز يصنع بدون خميرة وهو خبز شديد البياض.

ما الفرق بين الفران والخباز؟

الخباز: هو الذي يصنع الخبز ويبيعه في السوق.

الفران: هو الذي يخبز الخبز الخاص بالبيوت مقابل أجر معين.


إناء من النحاس المطعم بالذهب والفضة


(1) **الطبقات الشعبية**، ص137.

(2) **الطبقات الشعبية**، ص137.

السقاءون

لم تكن الآبار الموجودة بالقاهرة تكفي لتزويد الناس بما يحتاجونه من المياه العذبة فكان السقاءون يقومون بإحضار مياه نهر النيل على ظهور الجمال ويمرون بها على المنازل، وكان الماء يباع بالقربة مقابل أجر معين. ولم يكن الماء متوافرًا بالسهولة التي نحصل بها عليه اليوم. وكان الناس يستخدمون المياه بحرص شديد؛ لأن الماء نعمة من الله يجب المحافظة عليها.

الأعياد الدينية والاحتفالات

كان يصاحب الأعياد البهجة والسرور والرفاهية، وكانت تعد وسيلة للترفيه عن الناس.

الأعياد الدينية

شهر رمضان

كان فقهاء وعلماء المدينة يجتمعون بعد عصر يوم التاسع والعشرين من شهر شعبان عند دار القاضي ويذهبون إلى مكان مرتفع خارج المدينة ليستطلعوا هلال رمضان. كانت تفرش لهم الأرض بالسجاجيد وكانوا يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب ومعهم الفوانيس وتقام الاحتفالات ابتهاجًا بقدوم شهر رمضان المعظم. وكانت المطاعم والمطابخ تظل مفتوحة طوال ليالي شهر رمضان لتقديم السحور للناس.

ابن بطوطة

وصف لنا الرحالة (ابن بطوطة) احتفال المصريين باستطلاع هلال شهر رمضان بأن يجتمع فقهاء المدينة ويصعدوا إلى مكان مرتفع ويقول: «فيرقبون الهلال ثم يعودون بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضي إلى داره ثم ينصرفون.»[1]



المسحراتي

كان المسحراتي يطوف على البيوت قبل صلاة الفجر ومعه طبلة ويردد أغنياته وينادي على الناس ليستيقظوا لتناول السحور.

الشموع

في وقت صلاة التراويح كانت تستخدم شموع ضخمة تحمل فوق عجلات ويجرها الصبيان لتنير الطريق للناس أثناء ذهابهم إلى الصلاة في المساجد، وكان يتم استئجار هذه الشموع.

فوانيس رمضان

كانوا يعلقون الفوانيس على مكان مرتفع وتضاء من المغرب، حتى طلوع الفجر وهو وقت جواز الأكل والشرب. وتطفأ القناديل عند طلوع الفجر.

عيد الفطر

كان الناس يتوجهون إلى صلاة العيد مهللين ومكبرين. وكانوا يتبادلون أطباق الكعك كهدايا فرحة بالعيد. وتكون عادة الوجبة الأولى للإفطار من السمك المملح، بعدها يذهب الناس لشاطئ النيل لاستئجار المراكب للنزهة. ويلبس الأطفال والكبار ثياب العيد الجديدة. وكان بالقاهرة (36000) مركب بالنيل.

(1) **الطبقات الشعبية**، ص223.



عيد رأس السنة الهجرية (أول محرم)

كان الناس يتبادلون التهاني ويعطون الصدقات للفقراء ويشترون الألبان في هذا اليوم. وكانت هذه عادة من العادات التي يحرص عليها المصريون؛ لاعتقادهم أن شراء اللبن يجعل السنة الجديدة سعيدة وبيضاء مثل اللبن.

يوم عاشوراء (العاشر من المحرم)

كان الناس في هذا اليوم يطلقون البخور ويذبحون الدجاج ويطبخون حبوب القمح (العاشوراء). ولايزال المصريون يعدون هذه الأكلة في يوم عاشوراء حتى اليوم.

المولد النبوي

كان يقام احتفال في هذه المناسبة وكانت تقام خيمة كبيرة تسمى (خيمة المولد) يكون في مدخلها حوض مليء بعصير الليمون بالسكر، ويبدأ الاحتفال بتلاوة القرآن ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

دوران المحمل (وهو الذي يحمل كسوة الكعبة)

كانت الزينات تعلق فوق البيوت والدكاكين ويخرج الناس لمشاهدة مرور المحمل وهو هودج محمول فوق جمل له قبة مطلية بالفضة ومغطاة بالحرير الأصفر وكان يوجد بداخلها:

- كسوة الكعبة المشرفة.
- كسوة مقام سيدنا إبراهيم أبي الأنبياء.
- كسوة ضريح حجرة النبي (صلى الله عليه وسلم)

وكانت الكسوة تصنع من أجود أنواع الحرير ويتقدم الموكب الأمراء والوزراء والقضاة والمحتسب وأعيان الدولة والفقهاء[1] ويسبقه أيضًا فرسان المماليك مستعرضين مهاراتهم في اللعب بالرماح والألعاب البهلوانية فوق ظهور الخيول. ويبدأ الموكب من عند باب النصر مخترقًا شوارع القاهرة حتى يصل إلى ميدان الرميلة ويكون السلطان جالسًا في الميدان لمشاهدة الاحتفال الذي يعود مرة أخرى إلى باب النصر وكان هذا الاحتفال يقام مرتين في السنة.

(1) زيارة مصر أم البلدان (ص67).

مئذنة جامع أق سنقر (الجامع الأزرق)

الأعياد المسيحية

عيد الشهيد



كان مهرجانًا كبيرًا يقام على ساحل نهرالنيل من ناحية حي (شبرا) وكان الناس يعتقدون أن النيل يفيض إذا غسل أصبع أحد القديسين في الماء، وكان الاحتفال مهرجانًا كبيرًا يرقص فيه الفرسان بخيولهم على إيقاع الطبول والمزمار. ويصف لنا (ابن إياس) بعض مظاهر الاحتفال:

«كان الناس يكرون المراكب حتى ما يبقى في البحر مركب ويوقدون فيها الشموع والقناديل في الليل حتى يسدوا البحر من كثرة المراكب».

عيد الميلاد

يوم مولد نبي **الله** عيسى عليه السلام كانت الكنائس توقد بالمصابيح وتزين، وكان الناس يصبغون الشموع في هذا اليوم بألوان بديعة وتقام ألعاب بالمشاعل.

عيد البشارة

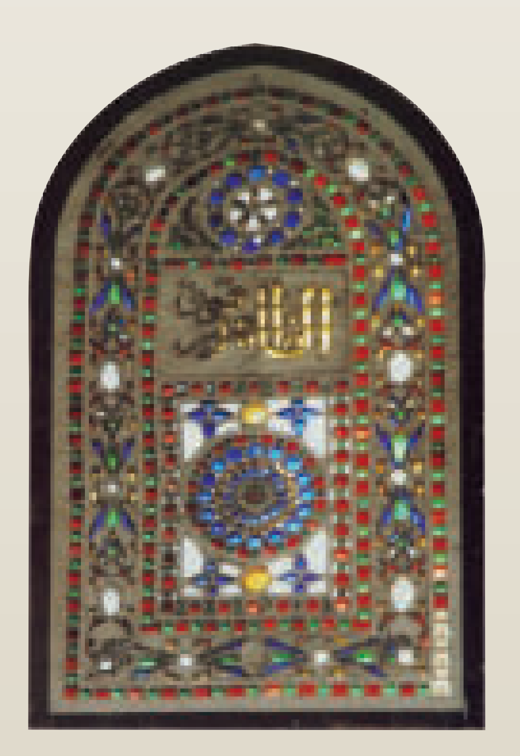
هو يوم بشارة سيدنا جبريل عليه السلام لمريم العذراء بمولد نبي **الله** عيسى عليه السلام.

خميس العهد

كان المسيحيون والمسلمون يتهادون في هذا اليوم أطباق العدس المطبوخ والسمك والبيض الملون وكانوا يطلقون فيه كثيرًا من البخور.

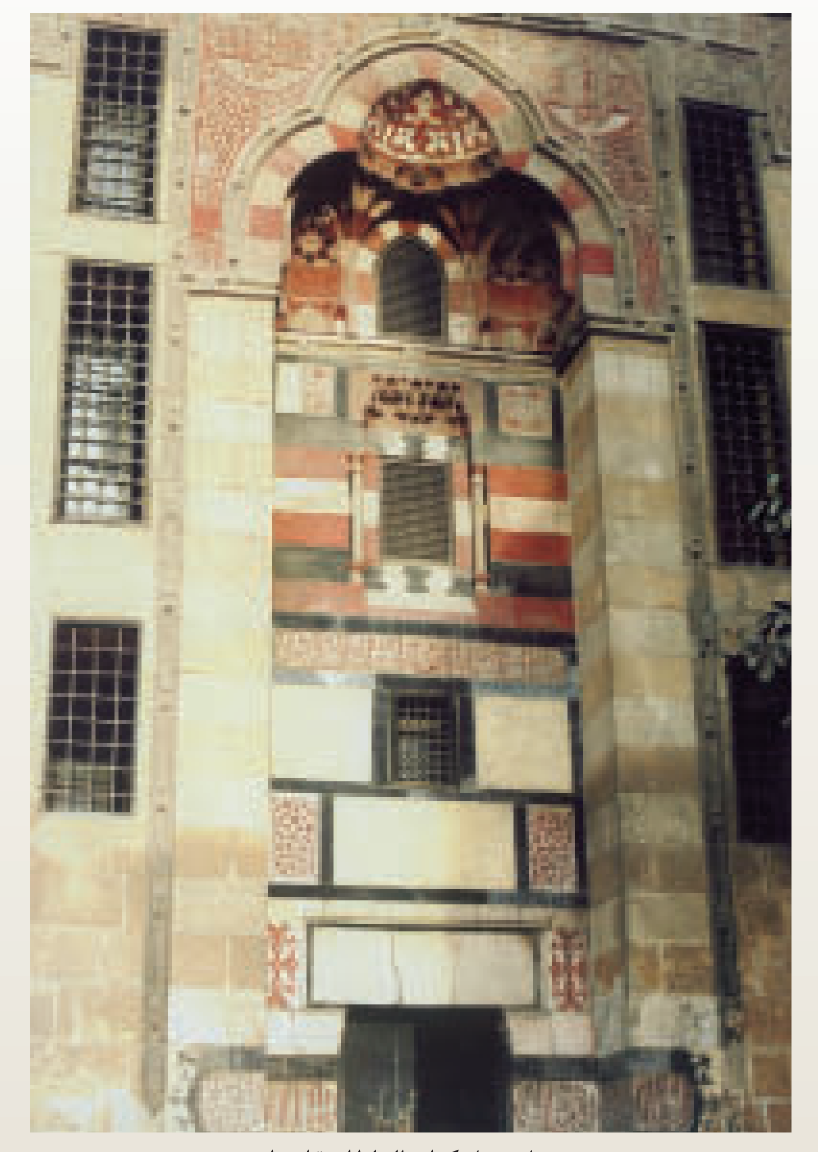
أعياد أخرى

عيد وفاء النيل وكسر الخليج



النيل هو شريان حياة المصريين. وفي يوم السادس والعشرين من شهر بؤونة (يونية) كان يتم قياس ارتفاع منسوب النيل في مقياس النيل الموجود بجزيرة الروضة. كان الفرسان في هذا اليوم يخرجون رافعين الأعلام فوق أكتافهم ويذهبون إلى المقياس لمعرفة مقدار زيادة النهر ثم يجوبون الشوارع ويبلغون الناس بالمقدار. ولو وصل منسوب النيل إلى ستة عشر ذراعًا كان علامة الوفاء، ويعلق على شباك المقياس ستارة صفراء ويتم دهن العمود بالعطر. وفي اليوم التالي يركب السلطان إلى المقياس في موكب يتبعه الأمراء والموسيقيون وتعلو أصوات الطبول والزغاريد ويكسر السلطان السد ثم ينصرف إلى القلعة، ويبدأ الاحتفال الشعبي الضخم ويكون يوم عيد وتعلق الزينات وتمد الموائد الحافلة باللحوم المشوية والحلوى والفواكه، ويجلس إليها السلطان والمماليك ويكون للعامة نصيب منها. وتستمر هذه الاحتفالات سبعة أيام بلياليها.(1)

(1) **الطبقات الشعبية**، ص232 - 233.


مدخل سبيل كتاب السلطان قايتباي

الاحتفال بشفاء السلطان

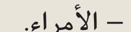
عندما يعافى السلطان من مرض أصابه تقام الأفراح والاحتفالات. وفي مثل هذه المناسبات يوزع السلطان الصدقات على الفقراء.

الاحتفال بعودة السلطان منتصرًا

عند انتصار السلطان في إحدى المعارك كانت القاهرة تزين من باب النصر حتى القلعة ويحضر المغنون والموسيقيون وكانت الأحواض تملأ بالسكر والليمون وتقام الاحتفالات ويطلي أصحاب المحلات واجهات محلاتهم.

مواكب السلاطين

كانت الأعياد من أسعد الأيام في العصر المملوكي، فكانت المدينة كلها تتزين ويتجمع الناس في الطرقات لمشاهدة الموكب الذي يجوب شوارع المدينة. وكان المماليك يرتدون قمصانًا صفراء مطرزة بالذهب، ويحضر السلطان فوق جواده مرتديًا عباءته السوداء الفخمة متقلدًا سيفه الذهبي وعمامته الكبيرة. يمشي وراء السلطان مملوك يحمل المظلة الملكية ليظلل رأس السلطان من الشمس، وكانت تفرش له الأرض بالحرير ويتم نثر العملات فوق رءوس الناس المتجمِّعين. وكان الموكب يمر من القلعة حتى يصل إلى باب النصر، ثم يذهب إلى باب زويلة ويعود إلى القلعة مرة أخرى، ويسير وراء الموكب:



– الأمراء.

– الشعراء والزمارون.

– الجوكندار (حامل مضرب السلطان في لعبة البولو) حاملًا خناجر الدولة، الجكمدار (حامل الصولجان) يحمل صولجان الملك، الحرس حاملو المطاريد (حربات مزودة بفأس)، رافعو الأعلام.

ويروي لنا (ابن إياس) موكب دخول السلطان (الملك الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد بن قلاوون) إلى مصر قادمًا من الشام، فيقول:

«فكان يوم دخوله إلى القاهرة يومًا مشهودًا وزينت له وحملت على رأسه القبة والطير وفرشت له الشقق الحرير من باب النصر إلى القلعة. وهو في غاية العز والنصرة والأمراء مشاة بين يديه. ونثروا عليه الذهب والفضة وضج له الناس بالدعاء».[1]

(1) بدائع الزهور، ص246.

متنزهات القاهرة

البرك

كانت البرك تعد من أعظم متنزهات مصر، والبركة عبارة عن بحيرة صغيرة تتخلف عن مياه الفيضان (فقد كان النيل قريبًا من القاهرة). كان الناس يذهبون إلى البرك للنزهة باختلاف طبقاتهم، وكانت مكانًا مهمًّا للاحتفالات والمواسم.

بركة الحبش: كانت تقع جنوب مدينة الفسطاط، وتقدر مساحتها بحوالي ألف فدان. كانت بركة كبيرة، بني حولها المناظر والجوامع وكان السلاطين يجلسون بها للنزهة. أقام حولها السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) مصطبة لإطعام الطيور لأنه كان يمارس هواية الصيد بها وكانت هذه البركة تغذى بالماء من خليج يصل إلى النيل.

بركة الشعيبة: تقع بعد بركة الحبش وكان الماء يأتيها من نهر النيل. مساحتها تقدر بأربعة وخمسين فدانًا وكان حولها المناظر والمباني وكان أهالي القاهرة يستمتعون بالنزهة فيها، وقد حولها (عز الدين أيبك) إلى بستان.

بركة قارون: كانت البركة تقع خلف جامع (أحمد بن طولون) وكانت مساحتها خمسة عشر فدانًا وكانت محاطة بالبساتين. وهي بركة أخرى غير بركة قارون التي توجد اليوم في الفيوم.

بركة الفيل: أقدم وأعظم متنزهات القاهرة. كانت تقع بين مدينة الفسطاط ومدينة القاهرة، وكانت مساحتها أربعين فدانًا. كان يغذيها بالماء مجرًى مائي يصل للنيل، بنى حولها السلاطين والأعيان القصور ذات البساتين والمناظر والمدارس والحمامات.

المناظر

كانت المناظر عبارة عن قصور صغيرة الحجم تبنى للخلفاء على البحيرات للنزهة وبها شرفات للنظر منها وقد أقام الفاطميون بمصر العديد من المناظر كمتنزهات. ومن المناظر التي كانت مقامة في عصر المماليك:

منظرة الكبش: على جبل يشكر. وكانت تشرف على بركة الفيل، أعاد بناءها السلطان (محمد بن قلاوون) (1292م) وزاد في مساحتها وأنشأ بها إصطبلًا للخيول. تم زواج ابنة الملك الناصر محمد بمنظرة الكبش من ابن الأمير أرغون من أمراء المماليك وكان عرسًا خياليًّا، حضره كل الأمراء واستمر الفرح ثلاثة أيام بلياليها.



مقعد قصر الأمير طاز

منظرة الخمسة وجوه: أنشأها أمير الجيوش الفاطمي (بدر الجمالي) موقعها حي (الشرابية) الآن أعاد بناءها في العصر المملوكي السلطان المؤيد شيخ الذي كان مغرمًا بالمتنزهات، وكان يقضي أغلب أوقاته هناك. وقد جعل أمراء وأعيان دولته يبنون بيوتهم حولها وكتب فيها الشعراء لجمالها شعرًا جميلًا.

مطعم الطير: كان مطعم الطير متنزهًا للسلاطين المماليك، يقع بين أرض صحراوية وأرض زراعية وبنى بها الناصر محمد مصطبة أي مكانًا مرتفعًا ممهدًا لإطعام الطيور. وكان يوجد بها كثير من الحيوانات والطيور البرية، لذلك حرص المماليك على الذهاب إليها لممارسة رياضة الصيد.

المطرية

كان الطريق بين القاهرة والمطرية مليئًا بالقصور الفخمة والاستراحات التي بناها كبار الأمراء، كما كان يوجد بها شجر البلسان الذي يستخرج منه زيت الميرون، وكان هذا الزيت يباع بثقله ذهبًا (مرتفع الثمن جدًّا) لأنه كان يستخدم في ماء المعمودية أي تنصير الأطفال بماء مقدس عند المسيحيين.

القناطر

تم بناء وتعمير الكثير من القناطر في العصر المملوكي مثل قنطرة السبع وقنطرة أق سنقر وقنطرة طقزدمر. وقد اهتم المماليك بحفر مجرى النيل وإزالة الرمال منه وشيدوا عليه الجسور وحفروا الخلجان.

ميادين القاهرة

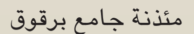
كانت الميادين عبارة عن ساحات واسعة يقوم ببنائها السلاطين. كانت تزرع بها الأشجار وتستخدم كأماكن للألعاب الرياضية المختلفة مثل الفروسية والقبق والكرة والصولجان كما كانت تقام فيه الاحتفالات.

ميدان الرميلة: كان ميدان الرميلة يقع بين الباب الغربي للقلعة وبين مدرسة السلطان حسن. بناه السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) تحت القلعة، وحفر به الآبار وغرس به النخل. وكان يلعب به الكرة هو وأمراؤه يومي الثلاثاء والسبت من كل أسبوع. استخدم الميدان كمتنزه ملكي وشعبي وكانت تقام فيه الصلاة في الأعياد وحفلات زواج السلاطين والأمراء والمواكب وألعاب الفروسية وكان يتم فيه الاحتفال بخروج المحمل.[1]

ميدان القبق: أنشأه السلطان (الملك الظاهر بيبرس البندقداري) كميدان لتدريب جيوشه على ألعاب الفروسية فأصبح أيضًا مكانًا للاحتفالات في المواسم والأعياد. وكان موقعه خارج القاهرة من ناحية الشرق.

الميدان الناصري: أنشأه (الناصر محمد بن قلاوون) وكان يقع مكان (حي جاردن سيتي اليوم) وجهزه لركوب الخيل وللعبة القبق والصوالجة وبنى حوله القصور لينزل بها هو وأمراؤه.

(1) **ميادين القاهرة**، ص20-19.


مئذنة جامع برقوق

الرياضات

استمتع المصريون بلعب الرياضة منذ أيام المماليك مثل:

لعبة القبق: هي لعبة رماية تقوم على تصويب السهام نحو قرعة مطلية بالذهب وبداخلها طيور الحمام. الفائز هو الذي يصيب القرعة ويطلق الحمام وكان لهذه اللعبة ميدان خاص خارج باب النصر.

الصيد: من أحب الرياضات للمماليك فقد كانوا يقومون باصطياد الطيور بمساعدة الكلاب المدربة مستخدمين البنادق.

الكرة والصولجان: كانت لعبة تشبه (البولو) وهي تلعب بكرة وعصا طويلة معقوفة، ويتم اللعب بها من فوق الخيول.

الحرف والصناعات

صناعة السكر: كان المصريون مغرمين بتناول الحلويات وكانت صناعة السكر من الصناعات المهمة، فكان هناك (58) مطبخًا تصنع السكر في الفسطاط وحدها. كان يتم صنع أنواع مختلفة من الحلوى وتباع في المطابخ مثل (العلاليق) وهي تماثيل مصنوعة من السكر على هيئة حيوانات، يبدأ وزنها من ربع رطل إلى عشرة أرطال وتعلق في واجهات المحلات.

صناعة النحاس المكفت: المكفت أي المطعم بالذهب والفضة، وقد برع المصريون في هذه الصناعة وأنتجوا تحفًا في غاية الإبداع، كان من الأشياء المهمة وجود دكة أي خزانة من النحاس المكفت في جهاز العرائس.

صناعة المشربيات: أبدع المصريون في حرفة خرط الخشب، وقد أصبحت المشربية عنصرًا فنيًّا مهمًّا ومميزًا للبيوت والقصور والوكالات، كان الفنانون يجمعون القطع المخروطية الدقيقة ويكونون بها أشكالًا هندسية ونباتية وكتابات رائعة.

ما هي المشربية؟

المشربيات هي شبابيك خشبية ذات فتحات ضيقة متناسقة الشكل، تسمح بدخول الهواء ولكن تحجب رؤية من بداخل البيت؛ لقرب القطع الخشبية من بعضها البعض. وكلمة مشربية مشتقة من كلمة شرب لأن القلل (أوانٍ فخارية تحتوي على مياه الشرب) كانت توضع على رف صغير خارج المشربيات لتبريد الماء.

صناعة الزجاج: وصلت صناعة الأكواب والأوعية والكئوس والأباريق والصحون الزجاجية إلى درجة عالية من الإتقان، كما أنتجوا الزجاج المذهب.



سبيل كتاب السلطان قايتباي

المشكاة

من أجمل ما وصل إلينا من العصر المملوكي المشكاوات الزجاجية المموهة بالمينا والمغطاة بالزخارف النباتية والآيات القرآنية. والمشكاة هي عبارة عن مصباح زجاجي يتم وضع أداة للإضاءة بداخله مثل الشمع ويعلق بسلاسل على السقف.

مشكاة

صناعة الأقمشة والمنسوجات:

سميت حرفة صناعة الأقمشة بالقزازة وأصحاب الحرفة بالقزازين.

الحائكون:

هم من يصنعون الأثواب الجاهزة من الغزل والنسيج.

الحريريون:

هم من يصنعون الحرير ويصبغونه.

الصباغون:

هم من يصبغون الأقمشة بالألوان المختلفة.

الخياطون:

هم من يفصلون القماش لأثواب، وكان سعر خياطة الثوب حسب وزنه.

السجاد:

أنتج الفنان المصري قطعًا فنية تمتاز بالجمال الرائع، واستخدم الزخارف الهندسية والنجوم الطبقية والأشكال النباتية (الأرابيسك). وكان يحيط بالسجادة إطار عريض ذو زخارف نباتية.

مواد الصباغة

وكان يتم صبغ السجاد بألوان رائعة، وكانت الصبغات تستخرج من النباتات والحيوانات:

اللون الأصفر: يستخرج من جذور الكركم.

اللون البرتقالي: يستخرج من نبات الزعفران وقشر الرمان.

اللون الأحمر: يستخرج من البنجر ومن شجر التوت ومن نوع معين من دودة القز ومن دم الثيران.

اللون الأسود: يستخرج من برادة الحديد مع الحامض.[1]

الفسيفساء: عبارة عن أجزاء صغيرة من الزجاج والخزف الملون ترتب في أشكال جمالية وهندسية وتثبت بجوار بعضها البعض فوق الجص. وكانت تستخدم في تزيين الجدران وقد أبدع الفنانون المصريون في استخدامها فوق جدران المساجد والقصور والحمامات.

الرخام: لقد أبدع الفنان القديم في تكوين أشكال هندسية في حوائط وأرضيات الجوامع والبيوت بالرخام الناعم ذي الألوان البراقة وكونوا به لوحات رائعة الجمال.

النحت على الحجر والجص:

انتشر في عصر المماليك زخرفة الأسطح الحجرية بأشكال هندسية وأشكال نباتية وأطباق نجمية متميزة. كما زخرفوا جدران المساجد والمدارس والقصور بشرائط من الجص (الجبس) المنقوشة بكتابات قرآنية. كما زخرفوا القباب من الخارج بطريقة فريدة.

(1) **الفنون الإسلامية**، ص176.

الحفر على الخشب:

برع المصريون في الحفر على الخشب وكانوا يضيفون إلى الخشب أشرطة رقيقة من نوع آخر من خشب يكون لونه مختلفًا. وقد سادت الأشكال النباتية والزخارف الهندسية الملونة وكانت متقنة الصنع واختفت الصور الآدمية والحيوانية وكانوا يضيفون ويطعمون الأخشاب بالعاج والصدف بأشكال بديعة. فأنتجوا كراسي المصاحف وهي كراسي يتم وضع المصحف فوقها لقراءته في الجوامع وأنتجوا الأبواب الخشبية والمنابر والصناديق المزخرفة.

الخزف:

صنع الحرفيون البارعون الأطباق والطاسات والسلاطين والأزيار والقدور والقلل والكئوس والصحون وأضافوا رسومات جميلة للخزف. وقد أنتجوا شبابيك القلل التي تشبه الدانتيلا وعليها صور وحروف وأدعية (بالهناء والصحة والعافية).

فن التجليد والتذهيب:

استخدم الفنان في العصر المملوكي الزخارف الهندسية ذات الأشكال النباتية الملونة والأشكال النجمية المذهبة في صفحات المصاحف. كان المصحف يكتب عادة بتكليف من السلاطين أو الأمراء ويكتب عليه اسم السلطان وتاريخ الكتابة، كما صنع المماليك جلودًا مزخرفة للكتب.

الصناعات المعدنية:

لقد برعوا في صناعة الأسلحة ووصلوا لدرجة عالية من الدقة والإتقان فصنعوا السيوف والخناجر والدروع والخوذات وزينوها بالزخارف النباتية والكتابات العربية. وصنعوا أيضًا الأباريق من الفضة والخلاخيل والحلي والحلقان والدلايات الذهب المرصعة بالأحجار الكريمة والمينا.

إناء من الفخار



المهن

- **القصابة**: الجزارون، كانوا يلفون اللحم في ورق شجر الموز .
- **الباقليون**: الذين يبيعون العلف المصنوع من الفول للدواب.
- **الرواسون**: وكانوا يبيعون الكوارع وهي سيقان البقر والغنم.
- **البابية**: يقومون بغسل الثياب وكيها.
- **الكحال**: هو طبيب العيون.
- **الوقاد**: هو الذي يعمر القناديل ويغسلها ويغير مياهها
- **الأساكفة**: صناع الأحذية

ما الفرق بين الحلاق والمزين؟

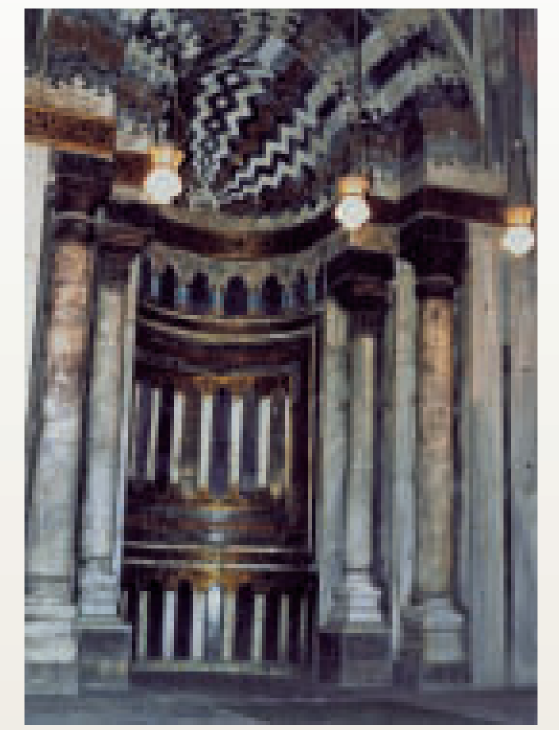
الحلاق: يقوم بقص الشعر ويهذب اللحى والشوارب.

المزين: يقوم بختان الأطفال وثقب الأذنين للبنات.

الغناء والموسيقى

كان الغناء وسيلة مهمة للتسلية، وكان يوجد في مقر السلاطين والأمراء الموسيقيون والمغنون لتسليتهم. كما كان عامة الناس يذهبون إلى الأماكن التي يغني فيها المطربون لكي يستمعوا إليهم، وكانوا يأتون بالمطربين في حفلات الزواج والأفراح. كما كان الرقص من وسائل التسلية والترفيه.




محراب جامع السلطان حسن

الآلات الموسيقية:

الطار: هو (الرق) وهو آلة مستديرة ذات حلقات معدنية ترفع باليد ويضرب عليها بالأصابع.

القانون: هو آلة وترية تعزف بريشتين توضعان في السبابة ويتم وضع الآلة فوق الركب.

العود: هو آلة وترية لها أوتار وريشة للعزف وكانت الآلة الأكثر استخدامًا عند الموسيقيين العرب.

المزمار: هو آلة من آلات النفخ وله ستة خروم.

الثقافة والعلوم

كان عصر المماليك زاخرًا بالعلماء والأدباء في شتى العلوم مثل الجغرافيا والفقه والطب والنحو.

أشهر علماء العصر المملوكي

- ابن النفيس (عالم في الطب اكتشف الدورة الدموية).
- ابن خلدون (مؤسس علم الاجتماع).
- ابن تيمية (العالم الإسلامي الكبير).
- ابن ماجد (عالم في الجغرافيا).
- العز بن عبد السلام (فقيه عصره).
- تقي الدين أحمد المقريزي (مؤرخ مصر السياسي والاجتماعي ولد بالقاهرة).
- أبو المحاسن ابن تغري بردي (مؤرخ عظيم أرخ الأحداث التاريخية والاقتصادية لمصر).
- ابن بطوطة (رحالة) زار مصر ما بين (1349م - 1352م).


المزولة الشمسية لجامع الناصر محمد ابن قلاوون في القلعة

المكتبات

حرص المماليك على توفير المكتبات داخل المساجد والمدارس والخانقاوات والبيمارستانات ليطلع عليها طالبو العلم لأن الكتب جزء مكمل للتعليم. فكان يوجد بجامع المؤيد مثلًا خزانة عظيمة للكتب بها المصاحف وكتب الحديث والفقه والعلوم والفنون ليستخدمها المترددون على الجامع. وكان بمدرسة السلطان حسن مكتبة مميزة تحوي كتبًا عديدة في سائر العلوم.

المزولة (الساعة الشمسية)

استخدم المماليك المزولة (الساعة الشمسية)، وهي آلة دقيقة تقيس ساعات النهار على لوحة. وقد ترك لنا المماليك عددًا منها في أماكن كثيرة مثل جامع السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) في القلعة، وكانت هناك أيضًا مزاول متنقلة.

تعداد مصر

قدر بعض الباحثين عدد سكان مصر في عصر المماليك بحوالي ثلاثة ملايين نسمة.



المنبر الخشبي لجامع المؤيد

الملابس

ملابس السلطان

كان شعار السلطنة هو العمامة والجبة السوداء مع حزام من الشريط المذهب يعلق به سيف. واللون الأسود هو علامة الولاء للدولة العباسية. أحيانًا ما كان السلطان يرتدي ناعورة (التخفيفة الكبيرة) وهي عمامة كبيرة الحجم من أغطية الرأس الثقيلة، أويرتدي (التخفيفة الصغيرة) وهي عمامة مدورة. وفي يوم 26 نوفمبر وهو بداية فصل الشتاء يلبس السلطان الملابس الشتوية الصوفية، وفي الصيف يلبس الملابس البيضاء المصنوعة من أرقى أنواع المنسوجات. وكان السلطان يرتدي عمامة سوداء في الشتاء أما في الصيف فيرتدي عمامة بيضاء.

ملابس الأمراء

كان الأمراء يرتدون القباء وهو قميص من الصوف والحرير، لونه أبيض ومزين بأشرطة حمراء وزرقاء وله أكمام ضيقة. وكانوا يضعون السيوف على جانبهم الأيسر. كما كانوا يلبسون أيضًا عباءات مصنوعة من الجوخ وغطاء رأسٍ يسمى شربوش وهو عمامة مثلثة الشكل.

الخطباء

يرتدي الخطيب الملابس السوداء والبيدق الأسود مع عمامة بيضاء. وكان رجال الدين يرتدون أضخم العمائم حجمًا للتعبير عن مكانتهم العالية.

عامة الناس

كان العامة من الناس يلبسون عمامة وجلبابًا.

قصة

اعتاد العامة أن يخفوا نقودهم تحت العمائم التي يلبسونها، واكتشف اللصوص ذلك وكانوا أحيانا يقومون بخطف العمائم من فوق رءوس الناس.

العمامة

كان للعمامة مكانة مهمة جدًا في العصر المملوكي، فحجم العمامة ولونها ونوع القماش المستخدم بها يدل على مهنة صاحبها وعلى مكانته الاجتماعية. وكلما زاد حجم العمامة دل ذلك على علو مكانة مرتديها ولكن رأي الناس اليوم في العمامة مختلف تمامًا عن رأي أجدادهم فهم يعتقدون أن مرتدي العمامة شخص ساذج ويكون مثارًا للسخرية والاستهزاء.

الشربوش: يشبه التاج وهو مثلث الشكل ويوضع على الرأس بغير عمامة أي يلف حوله منديل.

الكلوتة (القلنسوة): أصغر من الشربوش تخاط حافتها بشريط ولا يلف حولها منديل وهي مشابهة للطاقية وكان يرتديها الضباط الكبار.

العمامة: وهي طاقية يلف حولها منديل رمزًا للعسكرية.

الطاقية: لها ألوان مختلفة وهي مثل الكوفية.

الزمط: للطبقات الدنيا. وهو منديل يلف حول طاقية حمراء.[1]

(1) الأزياء المصرية، ص 102 - 109.

الأحذية

كان الناس يرتدون حذاء برقبة طويلة يطلق عليه اسم خف. وكان لونه أسود أو أصفر وأحيانًا بأربطة. ويلبس فوق الخف حذاء يطلق عليه سقمان.

ترجيل

حذاء حجمه كبير، لونه أحمر ومقدمته رفيعة مقلوبة إلى أعلى.

إطلاق اللحى

كان الرجال في العصر المملوكي يطلقون لحاهم. وكان طول اللحية يحدد مكانة صاحبها. فاللحية الطويلة للسلاطين والأمراء والأغنياء، أما العمال فتكون لحاهم قصيرة.[1]

الأختام

كان الرجال من أصحاب المكانة العالية يحملون أختامًا منقوشة عليها أسماؤهم وألقابهم وهي تقوم مقام التوقيع. وكان الختم يصنع للعامة من البرونز أو الذهب أو الفضة، أما أختام السلاطين فكانت تصنع من العقيق أو الزمرد أو الماس. وكانت الأختام تصنع أحيانًا على هيئة خواتم، تلبس في خنصر اليد اليمنى.[2]

المرأة في العصر المملوكي

ألقاب المرأة

تمتعت المرأة في ذلك العصر بالتقدير والاحترام. وأطلق على المرأة التي تنتمي إلى عائلة السلطان ألقاب عديدة مثل: بركة الملوك، ذات الحجاب المنيع، سليلة الملوك والسلاطين، خاتون (هانم)، خوند (معالي)، الشريفة، الدرة، العفيفة، المصونة.[3]
كما أطلق العامة على النساء ألقابًا عديدة تدل على الاحترام مثل: ست العيال، ست الأهل، ست البيت، ست الناس، ست الكل.

حياة المرأة

كان مكان المرأة هو المنزل وكانت تسكن في غرف خاصة بها، يطلق عليها (الحرملك) ومعنى الحرملك (محرم على الغريب دخوله) وتطل على الفناء الداخلي للمنزل عن طريق مشربيات (أي شبابيك من الخشب الذي لايسمح برؤية من بالداخل) وكانت النساء ممنوعات من الاختلاط بالرجال الغرباء.كانت مهمة المرأة الاعتناء بمنزلها وأطفالها، وكن يتبادلن الزيارات مع أقاربهن في المنازل في حدود ضيقة. ولكن أكبر متع المرأة كانت في الذهاب إلى الحمامات العامة لمقابلة الصديقات وللاستحمام والتجميل على يد «البلانات» وهن سيدات يعملن في الحمامات العامة ويقمن بتدليك النساء وتجميلهن كما كانت البلانة تصبغ شعور النساء بالحناء حتى يصبح أحمر جميلًا. ورغم التقاليد الاجتماعية والقيود التي فرضت على المرأة في عصر المماليك فقد حرصت النساء على الذهاب إلى المجالس الدينية في الجوامع، وكن يجلسن في أماكن مخصصة لهن بعيدًا عن الرجال. وكان مسموحًا للنساء بالنزول إلى الأسواق وكانت المقتدرات منهن يركبن حمارًا يقوده مكاري (سائس) ويتبعهن خادم أينما ذهبن، كما كُنَّ يخرجن إلى البرك وشاطئ النيل للنزهة.

الخاطبة

قامت الخاطبة بدور كبير لإتمام الزواج، فكانت تدخل البيوت متظاهرة ببيع البخور والعطور للنساء فتعرف كل أسرار الحريم. وعندما يطلب منها العروس مواصفات معينة لعروسه تنتقي له فتاة بها المواصفات المطلوبة وتمده بالمعلومات اللازمة عنها.[4]

(1) القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، ص109.
(2) المرجع السابق، ص 109.
(3) المرأة في العصر المملوكي، ص53 - 58.
(4) المرجع السابق، ص67.

الزواج

يدفع العروس (العريس) المهر وبعد عقد القران يتم إعداد الشوار(الجهاز) ويتم نقله إلى بيت العريس في حفل يشترك فيه الأقارب والمعارف وكان الجهاز يتكون من:
سبع دكك (خزائن بها أدوات وفضيات الطعام) من الفضة والنحاس الأبيض والخشب والصيني والنحاس المكفت والبلور.
وطشت وإبريق ومبخرة وأوانٍ
وصناديق للحوائج وعدد من المساند.[1] وفي ليلة الزفاف تقام وليمة كبيرة للأهل والأصدقاء ويعد الطعام وتضرب الدفوف ويعلو صوت الموسيقى والأغاني وترتدي المدعوات الملابس الفاخرة وتلبس العروس ثوبًا مطرزًا وتضع على رأسها (شربوش) مثل التاج ويأتي المغنون وفي نهاية الاحتفال يأخذ العريس عروسه إلى البيت.

الزينة

كان النساء يمشطن شعورهن بأمشاط الشعر المصنوعة من الخشب أو الأبنوس. وكانت للمرأة مكحلة لتكحيل العينين والحاجبين بالكحل، وكانت النساء يتزين بالحلي مثل قلائد العنبر والعقود والأطواق وخواتم الأقراط الذهبية والفضية والخلاخيل التي تلبس في الأرجل.



مشط مصنوع من الخشب

الملابس

كان النساء يرتدين (المئزر) وهي سراويل قصيرة تصل إلى الركبتين. وكن يرتدين القمصان الطويلة فوق هذه السراويل وهي ذات أكمام واسعة. وكن يضعن فوق رءوسهن (عصابة) وهي غطاء رأس مثلث وأحيانًا يزين باللؤلؤ كما تغطي المرأة وجهها ببرقع. وكن يضعن (البغلطاق) أي الملاءة الواسعة التي تغطي كل ملامح الجسم فوق القمصان. وكن يرتدين الخف في القدم والقباقيب الخشبية عند الاستحمام.

قصة

كانت الشقراوات يصبغن شعرهن باللون الأسود لأن المصريين لم يكن يروقهم الشعر الأشقر.[2]

نفوذ المرأة

تمتعت بعض النساء بنفوذ وسلطان في شئون الحكم وشاركن في سياسة الدولة مثل (شجر الدر) التي حكمت مصر باقتدار ثمانين يومًا. و(خوند أشلون) وهي أم السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) التي كانت تتناقش مع رجال الدولة في كثير من الأمور وكانوا يكنون لها التقدير والاحترام.[3]

خوند بركة

(خوند بركة) هي أم (السلطان شعبان) وكانت امرأة خيرة كثيرة البر، وكان ابنها (السلطان شعبان) يحبها حبًّا جمًّا ولا يعصي لها أمرا وكان يشاورها في كل الأمور. وقد أنشأت (خوند بركة) الكثير من المنشآت المعمارية مثل مسجدها (مسجد أم السلطان شعبان) وألحقت به ضريحًا ومدرسة. وأنشأت سبيل كتاب وبنت ربعًا ينسب إليها فكان يطلق عليه (ربع أم السلطان). وقد أمرت بكتابة مصحف شريف ليتم وضعه في مسجدها، قد كتب بخط النسخ، وزين بالذهب واللازورد وهو معروض في (دار الكتب المصرية).

---

(1) المرأة في العصر المملوكي، ص88.
(2) القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، ص108.
(3) بدائع الزهور، ص164.

عمل المرأة

قامت المرأة في الطبقات الفقيرة بمزاولة عدة وظائف لحاجتها إلى العمل، وكان معظمهن من الأرامل:

- **الداية**: هي التي تقوم بتوليد النساء وتصطحب معها كرسي الولادة وهو كرسي مخصوص تجلس عليه النساء أثناء عملية الولادة.
- **الدلالة**: تذهب الدلالة إلى البيوت وتقوم ببيع البضائع المختلفة للنساء.
- **البلانة**: وهي التي تقوم بتدليك النساء في الحمامات العامة.
- **الندابة**: وهي التي يتم استئجارها للبكاء في المآتم.
- **الماشطة**: وهي التي تقوم بتجميل النساء في الحمامات العامة.
- **الخاطبة**: وهي التي كانت تقوم بدور واسطة لتزويج البنات.[1]



ملابس النساء

يلبس النساء قمصانًا طويلة ويضعن تحتها سروالًا وفوقها إزارًا وهو عبارة عن ملاءة واسعة. ويغطي النساء رءوسهن بالعصابات وهي مناديل مثلثة الأطراف، كما كن يضعن يشمكًا، أي برقعًا، على وجوههن.

وسائل التسلية

خيال الظل: كانت تمثيليات خيال الظل تعتمد على الظلال من وراء ملاءة مُسدلة وكانت العروض تجذب المشاهدين. كما كانت عروض خيال الظل تقام في بيوت الأمراء لتسلية ضيوفهم.

النرد والشطرنج: رقعة مربعة يضعون فوقها الألعاب.

الألغاز والأحاجي: اللغز هو سؤال يعطي معاني مختلفة.

السيرك والحيوانات: كانت الحيوانات المدربة على الألعاب مثل: الفيلة والسباع تقدم عروضًا مع الألعاب البهلوانية ويذهب الناس لمشاهدتها و يستمتع بها الأطفال.

السيرك والحكايات الشعبية: كان القصاصون يلقون بالقصص على مسامع الناس في مجالس السمر ويروون لهم قصصًا ترتبط بالبطولة والفروسية مثل سيرة الظاهر بيبرس وقصص جحا وقراقوش وهو وزير (صلاح الدين الأيوبي) وكان يضرب به المثل في الظلم.

لعبة الصوالجة: رفع الأثقال.

المصارعة: كانت تتم بين رجلين يقتتلان.

الألعاب البهلوانية: كانت محببة جدًّا للناس وتقام في الشوارع، ويحكى أن رجلاً نصب حبلًا ومشى فوقه وهو مقيد وعيناه مربوطتان. وقد تجمع الناس لمشاهدة الألعاب الغريبة التي يقوم بها.[2]

---

(1) **الطبقات الشعبية**، ص 146.

(2) **بدائع الزهور**، ص1557.

الحاوي: كان يحمل معه صندوقًا يضع به أدواته المختلفة من حبال وعصافير، وكان يقوم بالحيل المختلفة في الشوارع. ويذكر ابن إياس أن (الناصر محمد بن قايتباي) أعجب بحاوٍ قام بخدعة مستخدمًا فيها الحيات وأغدق عليه العطايا.[1]

القرداتي: هو رجل يصطحب معه قردًا ودفًا يدق عليه ويتجمع الناس لمشاهدة القرد وهو يقوم بالرقص وبتأدية الحركات المختلفة.

الهزل

وجدت الطبقات الشعبية في الضحك والمزاح وإطلاق الشعر والغناء وسيلة للتخفيف من المشاكل:

- أطلقوا على الأمير (سيف الدين بكتمر الناصري) الدم الأسود وكان من مماليك الناصر محمد، يتصف بالظلم.
- وأطلقوا على الأمير (ناصر الدين) فأر السقوف وكان محتسبًا يراقب الأسواق ويقوم بمضايقة البائعين.
- وأطلقوا على الأمير (قشتمر البدري) حمص أخضر؛ لأنه كان يكثر من أكل الحمص.

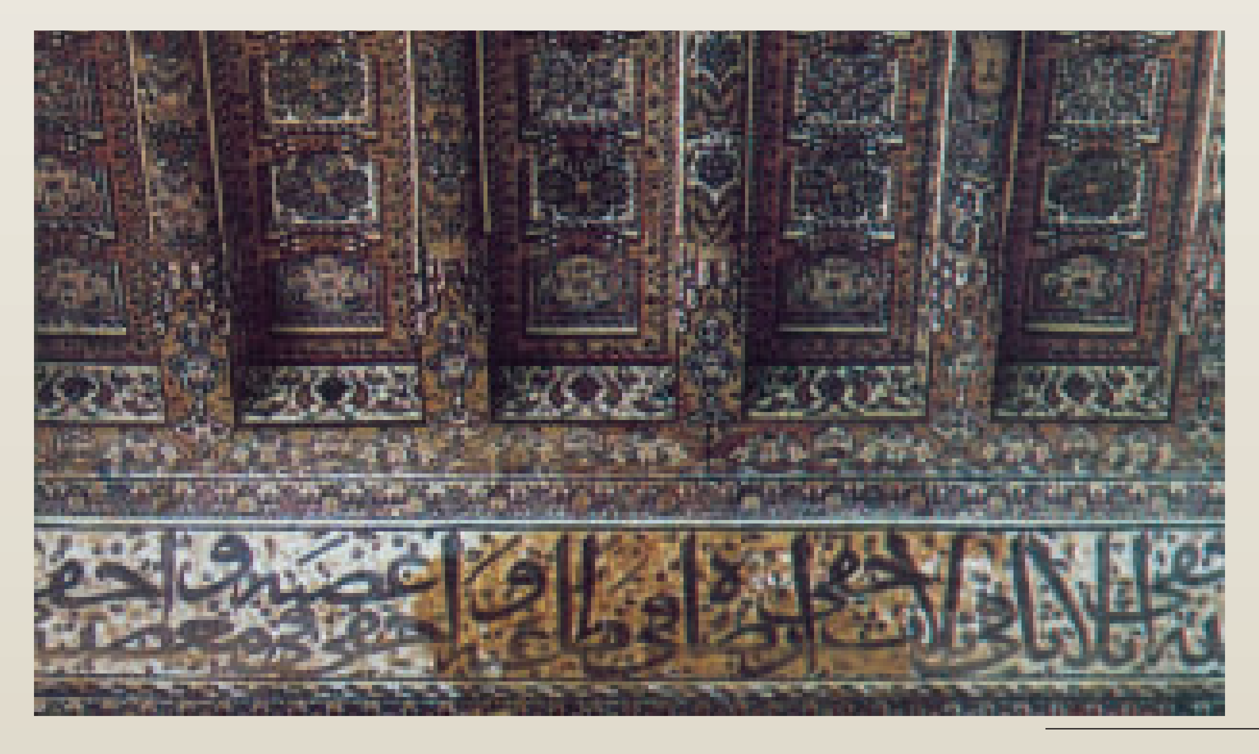
شعر العامية في العصر المملوكي

كان شعراء العامة يعبرون بقصائدهم عن المشاعر والأحاسيس المختلفة التي تدور في صدور الناس عبر الزمان من فرح أو قهر أو ظلم.

أمثلة من شعر العامة

طومان باي: لما تولى (طومان باي) الحكم كان عادلًا محبوبًا من الناس، بنى مقعدًا يجلس عليه ليسمع مظالم الناس، فقال فيه العامة هذه الأبيات:

قد عادت الدكة للحكم ... وانهدمت مسطبة الظلم
وصار طومان باي بين الورى ... يمشي به الذيب مع الغنم
فياله من ملك عدله ... قد شاع بين العرب والعجم



(1) بدائع الزهور، ص358.

معتقدات المصريين في عصر المماليك

– كان المصريون يخافون من الحسد والعين ويطلقون البخور بكثرة لاعتقادهم أنه يحمي من الحسد.
– كانوا لا يوقدون نارًا للطهي بعد العشاء لاعتقادهم أن هذا يجلب الشر.
– كانوا لو استعار أحد من الجيران غربالًا وهو آلة تفصل شوائب الدقيق وتجعله نقيًّا يضعون بداخل الغربال ملحًا وحجارة صغيرة لاعتقادهم أن هذا الفعل يدفع عنهم الحسد.
– كانوا يصنعون الأحجبة، والحجاب هو عبارة عن تمائم وتعويذات وقد اعتاد العامة أن يذهبوا لأحد المنجمين ويكتبوا ورقة بحبر أحمر أو أخضر وتطوى الورقة وتعلق في الرقبة، وكانوا يعتقدون أنها تشفي المرضى وتقضي الحاجات مثل الزواج.

من هم الحرافيش؟

كان لقبًا يطلق على الطبقة شديدة الفقر، وعرفوا أيضًا باسم الزعر والسابلة وأوباش الناس.

أمراء المماليك

شارك أمراء المماليك مع السلاطين في فعل الخيرات وفي بناء الكثير من الجوامع والمدارس والمشاهد والخانقات المميزة مثل السلاطين ومن هؤلاء الأمراء:
– **الأمير علم الدين سنجر الجاولي**: كان أحد أمراء (الملك الظاهر بيبرس) وقد بنى ضريح سنجر وسلار.
– **الأمير تنكزبغا المارداني الساقي**: أحد مماليك (الناصر محمد بن قلاوون) بنى جامع الماريداني.
– **الأمير قوصون الساقي الأتابكي**: أحد مماليك (الناصر محمد بن قلاوون) وكانت منزلته عظيمة عند السلطان فزوجه ابنته. وقد بنى جامع قوصون ووكالة الصابون.
– **الأمير الكبير سيف الدين شيخو الناصري**: كان أحد مماليك (الناصر محمد بن قلاوون) وقد بنى خانقاه وجامع شيخو.
– **الأمير سيف الدين صرغتمش**: كان أحد مماليك (الناصر محمد بن قلاوون)، وقد عين (جمدارًا) أي حامل مرآة السلطان وبنى مدرسة صرغتمش.
– **الأمير سيف الدين بشتاك الناصري**: كان متزوجًا من إحدى بنات (الناصر محمد بن قلاوون) وقد بنى جامعًا وخانقاه وقصر بشتاك.
– **الأمير أخور جهركس الخليلي**: أحد مماليك (الظاهر برقوق) بنى خان الخليلي.



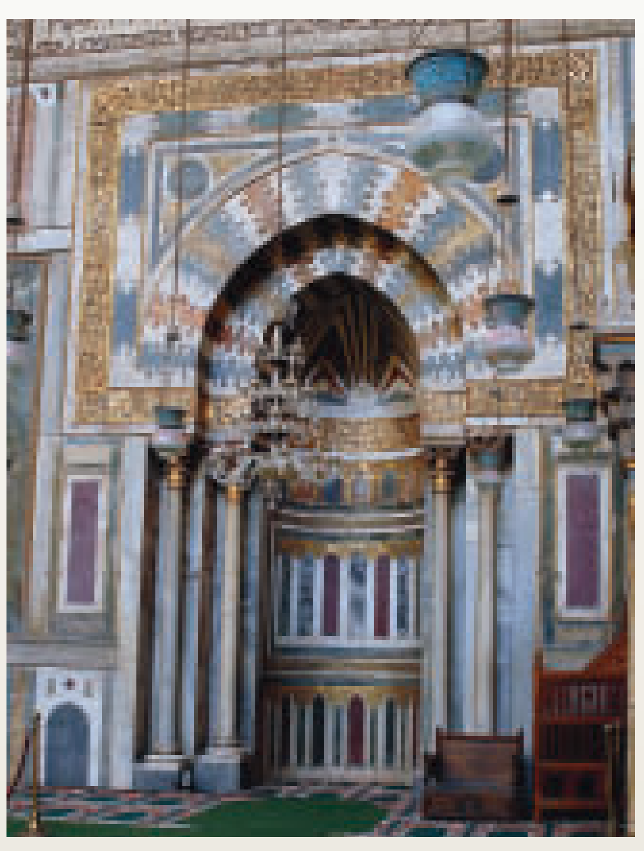
– **الأمير أق سنقر**: شيد العمائر السلطانية وكان أحد مماليك (الناصر محمد بن قلاوون) وقد بنى جامع أق سنقر وإليه تنسب قناطر أق سنقر.
– **الأمير قشتمر** (حمص أخضر): كان من أفضل الأمراء، فقد كان كريمًا، كثير الصدقات على الأيتام والفقراء. وكان من أمراء (الناصر محمد بن قلاوون) وقد غضب عليه السلطان وسجنه فاجتمع أسفل القلعة الفقراء والحرافيش الذين كان يعطف ويتصدق عليهم ليناشدوا السلطان أن يفرج عنه وقد استجاب لهم السلطان وأخرجه من السجن.[1]

(1) رحلات ابن بطوطة، ص63.

السمات المعمارية للفن المملوكي

يعتبر عصر المماليك العصر الذهبي للفنون والعمارة الإسلامية التي بلغت فيه قمة ازدهارها وقد ابتكر المماليك الكثير من العناصر المعمارية والفنية غير المسبوقة:

- تتميز المباني المملوكية بفخامتها وارتفاعها الشاهق مما يضيف عليها عظمة ومهابة.
- استخدام الفسيفساء.
- استخدام البلاطات الزخرفية.
- المباني المجمعة: فقد ضموا الجامع والمدرسة والضريح وسبيل الكتاب والبيمارستان لأول مرة في مبانٍ متصلة بعضها بالبعض.
- ألحقوا لأول مرة السبيل بالكتاب.
- أصبحت القباب أكبر حجما.
- شاع النقش على الجص في عصر المماليك البحرية.
- انتشرت الزخرفة على الحجر في عصر المماليك الجراكسة.
- زاد استخدام أحجار من لونين في الواجهات وتعرف باسم (الأبلق) ، وكان يستخدم فيها رخام أحمر وأبيض أو رخام أسود وأبيض.
- زاد الاهتمام بزخرفة واجهات المباني.
- استخدم الرخام في الحوائط.
- استخدم الخشب لعمل السقوف والمشربيات والأبواب.

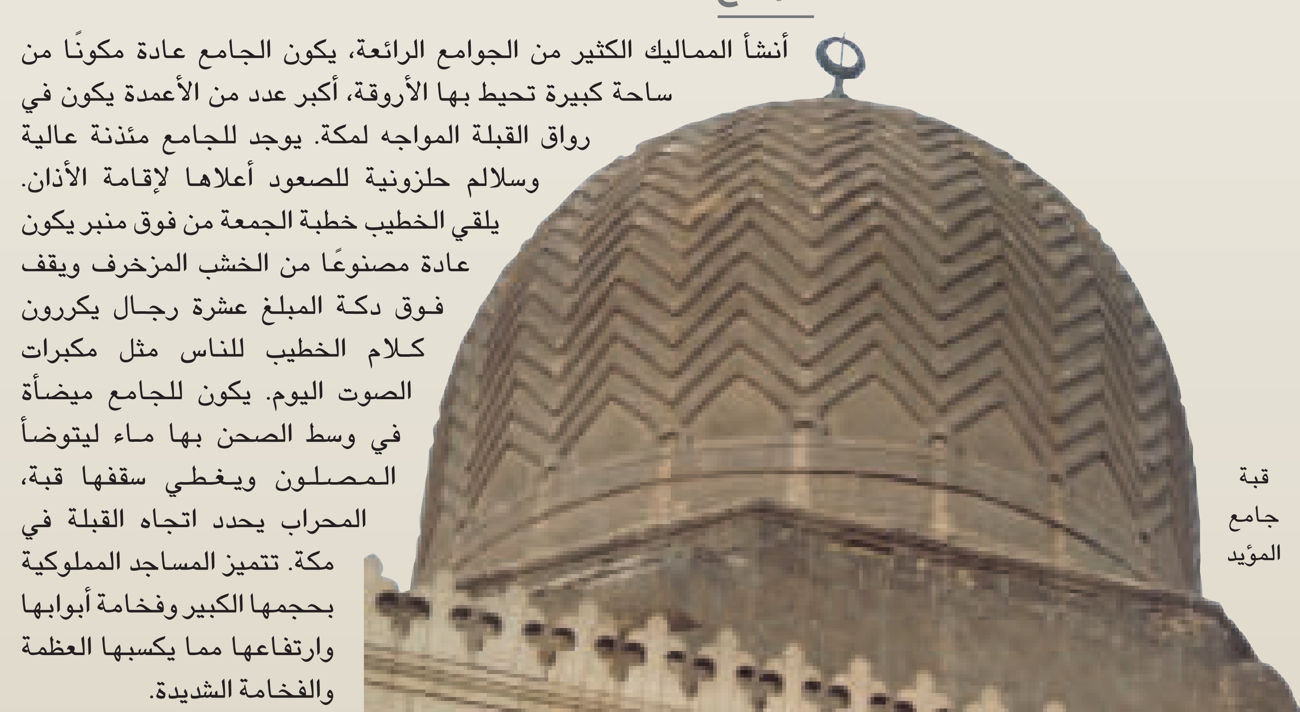


محراب جامع ومدرسة السلطان حسن

أهم منشآت المماليك

الجامع

أنشأ المماليك الكثير من الجوامع الرائعة، يكون الجامع عادة مكونًا من ساحة كبيرة تحيط بها الأروقة، أكبر عدد من الأعمدة يكون في رواق القبلة المواجه لمكة. يوجد للجامع مئذنة عالية وسلالم حلزونية للصعود أعلاها لإقامة الأذان. يلقي الخطيب خطبة الجمعة من فوق منبر يكون عادة مصنوعًا من الخشب المزخرف ويقف فوق دكة المبلغ عشرة رجال يكررون كلام الخطيب للناس مثل مكبرات الصوت اليوم. يكون للجامع ميضأة في وسط الصحن بها ماء ليتوضأ المصلون ويغطي سقفها قبة، المحراب يحدد اتجاه القبلة في مكة. تتميز المساجد المملوكية بحجمها الكبير وفخامة أبوابها وارتفاعها مما يكسبها العظمة والفخامة الشديدة.



قبة جامع المؤيد

جامع المؤيد

أنشأ هذا الجامع (السلطان المؤيد شيخ) ملاصقًا لباب زويلة مكان سجن كان يطلق عليه (خزانة شمايل). وقد سجن المؤيد في هذا السجن وهو مملوك صغير فعاهد الله لو أصبح ملكًا على مصر فسوف يقوم بهدم السجن وتحويله إلى جامع. يتكون الجامع من صحن مكشوف في وسطه ميضأة وحوله أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة. الباب الرئيسي شاهق الارتفاع مكسوٌّ بالرخام الملون والمقرنصات. تقوم مئذنتا الجامع فوق برجي باب زويلة الملاصق وكان يوجد للجامع مئذنة ثالثة ولكن انهارت. ومن أجمل القطع الفنية في الجامع بابه الخشبي المطعم بالنحاس وقد تم نقله من مسجد السلطان حسن عند بناء الجامع. المحراب مغطى بالرخام الملون كما يوجد للجامع قبة حجرية مزخرفة من الخارج بأشكال هندسية بديعة الجمال. شبابيك رواق القبلة مصنوعة من الزجاج الملون الذي يلقي بألوانه فوق المصلين. يوجد للجامع منبر خشبي دقيق الصنع مطعم بالحشوات العاجية، أما دكة المبلغ فمصنوعة من الرخام ومكتوب فوقها نص أنشئ الجامع باسم (السلطان المؤيد). وملحق بالجامع ضريح مدفون فيه (السلطان المؤيد) وابنه الأكبر، تعلوه قبة تحملها صفوف من المقرنصات ويوجد ضريح آخر مخصص للنساء. استغرق بناء الجامع ست سنوات وتكلف حوالي 70,000 ألف دينار.

قبة جامع المؤيد

قصة

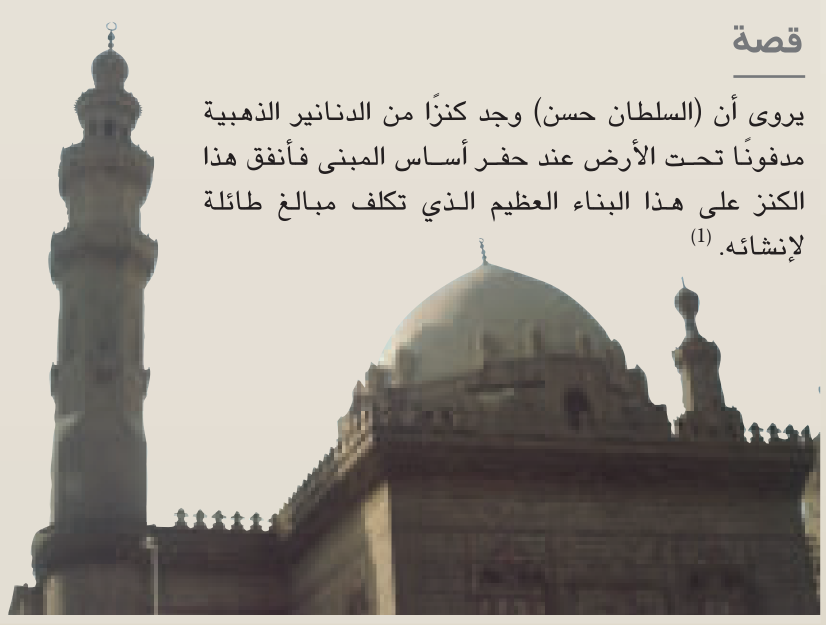
يروى أن (السلطان المؤيد) أنفق مبالغ كبيرة على بناء جامعه ثم عجز عن استكماله فأخذ يقتلع قطعًا جاهزة الصنع من مبانٍ أخرى، فأخذ أبواب مدرسة السلطان حسن وقطعًا رخامية من جامع قوصون ومن منازل الأغنياء فغضب الناس من انتزاع ممتلكاتهم بالقوة.

جامع ومدرسة السلطان حسن

بنى السلطان (حسن بن الناصر محمد بن قلاوون) مبنى ضخمًا يضم جامعًا ومسجدًا وضريحًا وهو يعتبر من أروع وأعظم مباني العمارة الإسلامية في العصر المملوكي حتى قيل عنه إنه هرم العمارة الإسلامية. مساحة المبنى (8,000) متر وقد استغرق بناؤه ثماني سنوات وكان يصرف عليه في كل يوم (20,000) درهم، المدخل شاهق الارتفاع يبلغ (37,8) متر أي حوالي اثني عشر طابقًا وهو مزين برخام ملون وكتابات مذهبة ويوجد ممر ضيق يفصل بين مدخل المسجد وساحته. الحوائط مزينة بأشرطة من الجص عليها كتابات كوفية لنصوص قرآنية مزينة بأوراق النباتات أما الأرضية فمغطاة بالرخام الملون. يتكون الجامع من صحن مكشوف تتوسطه فسقية وضوء ذات قبة خشبية، يحيط بالصحن أربعة إيوانات ضخمة شاهقة الارتفاع، وكان كل إيوان مخصصًا لمذهب من المذاهب الأربعة وتقع خلفه حجرات الدراسة وملحق بكل مدرسة مبنى من ستة أدوار كان يستخدم كمساكن للطلبة. وملحق بها مكان لدراسة المذاهب الأربعة.

قصة

يروى أن (السلطان حسن) وجد كنزًا من الدنانير الذهبية مدفونًا تحت الأرض عند حفر أساس المبنى فأنفق هذا الكنز على هذا البناء العظيم الذي تكلف مبالغ طائلة لإنشائه.[1]



جامع ومدرسة السلطان حسن

(1) بدائع الزهور، ص255.

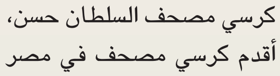
المذاهب الأربعة

- **المذهب الحنفي**: مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان.
- **المذهب المالكي**: مذهب الإمام مالك بن أنس.
- **المذهب الشافعي**: مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي.
- **المذهب الحنبلي**: مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني.

ضريح مسجد السلطان حسن

ملحق بالجامع ضريح تعلوه قبة تحتها (مقرنصات) وهي عبارة عن مثلثات مبنية في أركان الحجرة من أعلى لتسهيل إقامة القبة فوقها بدون بناء أعمدة لترفعها وهي تجعل القبة مثمنة الأضلاع. تعتبر قبة الضريح أكبر قبة في مصر وقد دُفن فيها ابن السلطان حسن ولم يدفن فيها (السلطان حسن) نفسه لأنه قتل ولم يعثروا أبدًا على جثمانه. ويوجد كرسي مصحف بداخل الضريح وهو أقدم كرسي مصحف في مصر. وكان ملحقًا بالجامع سبيل كتاب ولكن انهارت فوقه مئذنة الجامع وتهدم.





كرسي مصحف السلطان حسن،
أقدم كرسي مصحف في مصر

قصة

لما أتم بناء المسجد نزل (السلطان حسن) من القلعة يوم الجمعة وصلى به وكان معه قضاة المذاهب الأربعة والأمراء. ملئت الفسقية التي تتوسط صحن المسجد بالماء والسكر والليمون ووقف السقاة يفرقون المشروب على الناس بالطاسات. كرم السلطان كل من شارك في البناء ووزع عليهم الخلع السلطانية وهي ملابس فاخرة. وأعطى كبير المهندسين (محمد ابن بيليك الحسيني) ألف دينار.[1]

جامع الظاهر بيبرس

بناه (الظاهر بيبرس البندقداري) على مساحة ثلاثة أفدنة، الجامع يتكون من صحن مكشوف تحيط به الأروقة من الجهات الأربع. يوجد للجامع ثلاث بوابات مزخرفة بنقوش هندسية ونباتية محفورة على الحجر وشرائط من الكتابات الكوفية. توقفت الصلاة في الجامع في القرن السادس عشر الميلادي وتحول إلى مخازن عسكرية في عهد الدولة العثمانية وإلى قلعة ومعسكرات للجنود في أيام الحملة الفرنسية، ثم تحول إلى مصنع لصناعة الصابون في عصر لاحق وتم ترميمه في عام (1918 م) وعادت الصلاة به مرة ثانية.



(1) بدائع الزهور، ص254.

جامع آق سنقر (الجامع الأزرق)

أنشأه الأمير (آق سنقر) (1347م) وهو أحد مماليك (الناصر محمد بن قلاوون) وزوج إحدى بناته. يتكون المسجد من صحن مكشوف حوله أربع ظلات وأجمل ما فيه منبره الرخامي المزخرف بأوراق وعناقيد العنب. جدد المسجد (إبراهيم أغا مستحفظان) الذي كان يسكن بجواره (1651م) وكسا جداره الشرقي بالقيشاني الأزرق الجميل، ولذلك أطلق على هذا الجامع (الجامع الأزرق).



قطعة من قيشاني الجامع الأزرق

المدرسة

كانت المدرسة تقام على مساحة شاسعة وتكون عادة مربعة الشكل أو مستطيلة. تتكون المدرسة من أربعة إيوانات للمذاهب الأربعة، في وسطها صحن مكشوف، ويكون بها مكان للصلاة في اتجاه القبلة. تشمل المدرسة حجرات لسكن الطلبة لأنهم كانوا يقيمون في المدرسة وقاعات كبيرة للتدريس. يعين لكل مذهب من المذاهب الأربعة مدرس وأربعة معيدين (مساعدين) ومرتب مهمته تنظيم أمور الطلبة وطعامهم وتربيتهم. كان هناك مطبخ لطهي الطعام وطبيب لمعالجة من يمرض ومكتبة تحتوي على كتب عديدة. كان يتم منح الطلبة مرتبًا شهريًّا وكان اليوم الدراسي يبدأ من طلوع الشمس لصلاة العصر، أما الإجازة فتبدأ من شهر رجب وشعبان ورمضان حتى يوم (20) من شوال. وعندما ينتهي الطالب من الدراسة يمنح (إجازة) أي درجة علمية. وعادة تكون المدرسة منشأة خيرية.

مدرسة الأشرف برسباي (1422م)

يطلق عليها (المدرسة الأشرفية) وهي تقع في شارع المعز لدين الله، أنشأ هذه المدرسة السلطان (الملك الأشرف برسباي الدقماق الظاهري) وملحق بها أيضًا ضريح وسبيل وكتاب. المدرسة تعد واحدة من أجمل المدارس المملوكية ويتم فيها تدريس الدين وعلوم الحديث. تتكون المدرسة من صحن مكشوف في الوسط يحيط به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة. مدخل المدرسة مزين بمقرنصات وزخارف رخامية جميلة الشكل وواجهتها مطلية بطلاء جيري باللونين الأحمر والأبيض. ويوجد بها أسقف خشبية مزخرفة بأشكال نباتية بديعة ولها مئذنة. وهي تعتبر منشأة معلقة أي ترتفع عن مستوى الشارع ويتم الوصول إليها عن طريق سلم له ثماني درجات.

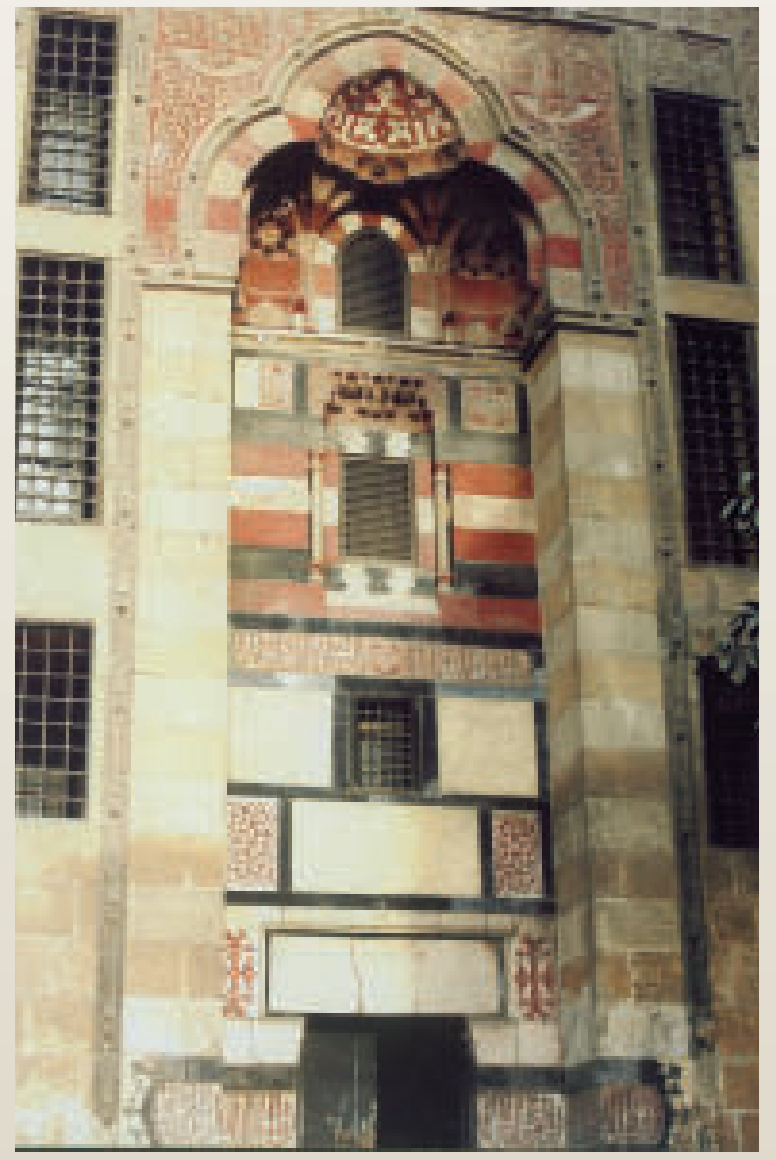
قبة ضريح الأشرف برسباي

مدرسة صرغتمش

هذه المدرسة من منشآت أمراء دولة المماليك البحرية، أنشأها (الأمير سيف الدين صرغتمش) وهو من مماليك (الناصر محمد بن قلاوون). كان صرغتمش (جمدارا) أي حامل المرآة أمام السلطان ثم أصبح (رأس نوبة كبيرًا) أي رئيسا للمماليك. كانت المدرسة مخصصة لتدريس المذهب الحنفي. تتكون المدرسة من صحن تتوسطه فسقية حولها ثمانية أعمدة رخامية ويحيط بالصحن أربعة إيوانات يحيط بهما مساكن للطلبة، يميز المدرسة القبة المزدوجة الفريدة من نوعها في مصر فهي عبارة عن قبة داخلية تحمل قبة خارجية. ويوجد بالمدرسة مئذنة يبلغ ارتفاعها (40) مترًا مكونة من ثلاث طبقات تعلوها خوذة منقوشة. على جانبي المحراب بقايا كسوة رخامية. ملحق بالمدرسة ضريح مدفون بداخله (الأمير صرغتمش).

مدرسة أم السلطان شعبان

أنشأ هذه المدرسة السلطان (أبو المفاخر شعبان) حفيد (الناصر محمد بن قلاوون) لوالدته (خوند بركة). تتكون المدرسة من صحن مكشوف حوله أربعة إيوانات ومئذنة فقدت قمتها. أجمل ما في هذا المبنى مدخله الذي يوجد فوقه تسعة صفوف من المقرنصات المذهبة الرائعة الجمال. ملحق بالمدرسة ضريحان تعلوهما قبتان، الضريح الأول مدفون به (السلطان شعبان) والضريح الثاني مدفون به والدته (خوند بركة).



السبيل كتاب

السبيل مبنى للسقاية مشتق من المصطلح العربي سبل الماء أي صبه والسبيل معناه أيضًا أنه عمل في سبيل الله. حث الدين الإسلامي على تقديم بذل الماء للإنسان والحيوان ويعتبر الماء من أفضل أعمال الخير. والسبيل مكان يبنى كصدقة جارية لتوزيع مياه الشرب مجانًا على المارة وكان يوجد بالقاهرة عدد كبير من الأسبلة، وكانت أيضًا توفر مياهًا للوضوء. يتكون السبيل من صهريج أي خزان يملأ بالماء تحت الأرض والطابق الأول على مستوى الشارع عبارة عن حجرة بداخلها أحواض مملوءة بالماء ولها نوافذ لتقديم المياه للناس عن طريقها وكان يتم تعيين موظفين وعاملين بالسبيل وعادة ما كان يلحق بالسبيل في الدور الثاني كتاب.

والكتاب هو مبنى لتعليم الأولاد الصغار والأيتام القرآن والقراءة والكتابة وكان يتم منحهم ماهية شهرية وملابس للكسوة في الشتاء وفي الصيف. الكتاب كلمة مشتقة من كتب أي تعلم وكان التلاميذ يتعلمون على يد معلم. وعادة يكون (سبيل الكتاب) من المنشآت الخيرية للملوك والأمراء والأغنياء تصرف عليها الأوقاف.

سبيل وكتاب قايتباى

السبيل أنشئ بشارع الصليبة الآن عام (1479 م) وهو مكون من ثلاثة مستويات الأول تحت الأرض يوجد به بئر وخزان من الحجر لاستخراج المياه. الدور الأرضي له نوافذ على الشارع ويجمع الماء في أحواض رخام ليبرد مع الهواء ثم يقدم للناس. الدور الأول كتاب لتعليم الصبية الصغار القراءة والكتابة وحفظ القرآن. في واجهة السبيل حجر أبلق أي مخطط بالعرض بخطوط بيضاء وسوداء ويوجد به رفرف خشبي يحجب عن السبيل أشعة الشمس. في الركن عامود به زخارف نباتية بديعة الشكل ومكتوب فوقه (عز لمولانا السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي عز نصره) ويوجد في داخل السبيل سلم يوصل إلى الكتاب.

مصحف السلطان الناصر فرج بن برقوق





أوقف السلطان (فرج بن برقوق) أموالًا لكتابة مصحف شريف ليتم وضعه في الخانقاه. فتم كتابة مصحف ضخم مزخرف بألوان رائعة و مكتوب بخط عربي جميل وهو يوجد الآن في (دار الكتب المصرية).

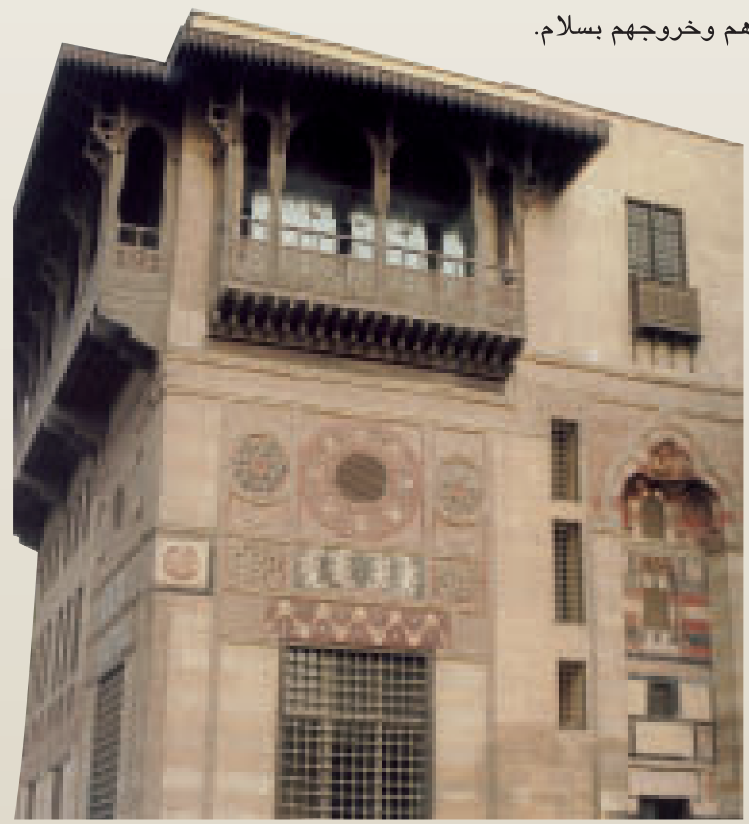
البيمارستان

لفظ أطلق على المستشفيات وهي مؤسسة خيرية يشيدها الخلفاء والملوك كصدقة. كان المرضى يقيمون بالبيمارستان ويلقون العناية الفائقة حتى يتم شفاؤهم وخروجهم بسلام.

بيمارستان قلاوون (1248 م)

بنى السلطان قلاوون مجموعة تشمل مدرسة وضريحًا وبيمارستانًا. وهذه المجموعة هي بداية لظهور طراز معماري يعرف بالمجمعات المعمارية وهي أول مجموعة متكاملة في تاريخ العمارة الإسلامية. تقع هذه المجموعة في شارع المعز لدين الله اليوم. مرض السلطان قلاوون وتلقى علاجًا في (البيمارستان النوري) في دمشق فأعجب به جدًا وعندما عاد إلى مصر بنى بيمارستانًا مثله للمرضى وكان يضم مئة سرير. اشتمل البيمارستان على أقسام مختلفة، مثل قسم الحميات والرمد والجراحة، قسم للحميات، قسم للرمد (العيون)، قسم للإسهال، قسم للجراحة، قسم للكسور، قسم للأمراض النفسية.

وكان للبيمارستان مطبخ لتجهيز الطعام للمرضى. وبه دواء خانة أي (أجزخانة) تصنع بها الأدوية. وكان يوجد بالبيمارستان مدرسة لتعليم الطب وللأسف لم يتبق من التكوين الأصلي للبيمارستان



سبيل كتاب السلطان قايتباي

سوى الإيوان الشرقي والإيوان الغربي، وقد ظل هذا البيمارستان يستخدم كمدرسة حتى القرن التاسع عشر. المستشفى مقسم إلى قسمين أحدهما للرجال والآخر للنساء ولكل مريض سرير خاص به وكان يعالج به (4000) شخص يوميا غير المقيمين. وكان كل مريض عند مغادرته البيمارستان يمنح خمسة دنانير ذهبية حتى لا يضطر إلى العمل. بيمارستان كلمة فارسية معناها دار المرضى – بيمار = مريض – ستان = دار، (الدواء خانة – الصيدلية). كان هناك أدوية متوافرة في البيمارستان يتم علاج المرضى بها: الأقراباذينات: الأدوية المركبة، والأبارج: الأدوية المسهلة، والجوارشنات: الأدوية الحمضية، والحبوب والأقراص، والدهانات والمراهم، والأكحال لأمراض العيون، والحقن، والترياق المضاد للسموم كما كانوا يستخدمون مسحوق القهوة المحروقة لعلاج الالتهابات. وكانوا يضعون عصير الليمون والبرتقال فوق العقاقير لتحسين مذاقها كما كانوا يغلفون حبات الأدوية المرة الطعم بالسكر والعسل.



باب مجمع قلاوون، من النحاس المزخرف بأطباق نجمية

طب الأسنان

عرفوا حشو الضروس فكانوا يحدثون ثقبًا في الضرس المصاب ثم يقومون بملئه بمعجون يتألف من كبريت وقطران وشيح وكافور ومصطكي.

الطب النفسي

كانوا يعالجون المرضى النفسيين بالرفق واللين وبالنزهات في الحدائق وبالاستماع إلى الموسيقى.

أرباب الكحل

هم أطباء العيون، كانت أمراض العيون منتشرة بكثرة في مصر ونجح الأطباء في علاج كثير من أمراض العيون باستعمال الكحل.

الجراحون

عرفوا تشريح الجسم، وأجروا جراحات كثيرة في البطن والأذن والدماغ وقاموا بعملية الولادة القيصرية التي تتم بفتح البطن.



مئذنة مجمع قلاوون

قصة

زار مصر في القرن الرابع عشر الرحالة العربي (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطنجي) المعروف (بابن بطوطة) وشاهد البيمارستان فانبهر بمبانيه وخدماته وأشاد به: « أنه يعجز الواصف عن محاسنه. وأنه أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر».[1]

(1) السلطان المنصور قلاوون، ص134.

الخانقاه

الخانقاه كلمة فارسية معناها البيت وهي مكان مخصص ليختلي فيه الصوفيون المنقطعون للعبادة. ظهرت في عهد المماليك البحرية (المدرسة الخانقاه) التي تجمع بين التعليم والدين.

خانقاه السلطان فرج بن برقوق

هي أولى المنشآت المعمارية في دولة المماليك الجراكسة، تقع هذه الخانقاه في القرافة الشمالية (جبانة المماليك). أنشأ هذه الخانقاه الملك الناصر (فرج بن برقوق) وهي مبنى مجمع يحتوي على ضريح وخانقاه وسبيل كتاب. الضريح مكون من قبتين للدفن، عليهما زخارف هندسية محفورة في الحجر، قمة في الدقة والإبداع تتوسطهما قبة ثالثة تعلو المحراب، تحت كل من القبتين غرفة مربعة، إحداهما للرجال ومدفون بها (السلطان برقوق) وابنه (عبد العزيز) والأخرى للنساء ولم يدفن منشئها (الملك فرج) بها؛ لأنه مات بسوريا ودفن هناك، ويعتبر هذا الضريح هو الأكبر بين جميع الأضرحة في مصر. تتكون الخانقاه من صحن مكشوف في الوسط يحيط به أربعة أروقة، وكانت تستخدم أيضًا كمسجد جامع؛ لأنه يوجد بها مئذنتان ومنبر ودكة مبلغ ويوجد بالخانقاه أيضًا شبابيك مصنوعة من الجص والزجاج الملون. كانت تعقد بالخانقاه حلقات للتدريس ويوجد بها غرف لإقامة الصوفية، وملحق بالمبنى سبيل لسقاية الناس، يعلوه كتاب لتعليم الأطفال وقد استغرق بناء الجامع اثنتي عشرة سنة.

خانقاه الأمير شيخو

هي من منشآت أمراء المماليك أنشأها الأمير(سيف الدين شيخو العمري) كانت مساكن للعامة اشتراها شيخو وبنى مكانها خانقاه للصوفيين. بنيت هذه الخانقاه (1355م) لتكون دارًا للحديث ومدرسة لتعليم الدين على المذاهب الأربعة. صحن الخانقاه مربع تتوسطه فسقية ويحيط به من ثلاث جهات مساكن للطلبة، تتسع هذه الخانقاه لسبعمائة شخص من الصوفيين وعند موت شيخو دفن في ضريح ملحق بها. عند الواجهة المقابلة للشارع يوجد مسجد شيخو ومئذنة مكونة من ثلاث طبقات تماثل في ارتفاعها وفي طرازها مئذنة الخانقاه، الخانقاه مبنية من الحجر المزخرف بالأحمر والأبيض وسقفها من الخشب المزخرف بألوان رائعة.[1]

خانقاه سرياقوس

ذهب السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) للصيد كعادته بمنطقة تسمى (سرياقوس) تقع شمال القاهرة، فأصابه ألم شديد فدعا الله أن يزيل عنه الألم ونذر أن يبني في هذا الموضع بيتًا يعبد الله فيه. ولما أتم الله له الشفاء بنى في هذا المكان خانقاه تتسع لمائة صوفي. وقد زالت هذه الخانقاه تمامًا اليوم وأقيم مكانها مستشفى للأمراض العصبية والنفسية، ولايزال يطلق على المنطقة اسم الخانكة نسبة (لخانقاه سرياقوس).[2]

(1) الخطط المقريزية، ص283.

(2) الخطط المقريزية، ص285.

الوكالة

الوكالة هي منشأة تجارية لها فناء مستطيل مكشوف في الوسط ويوجد حوله المخازن التي تحفظ بداخلها البضائع. فوق الوكالة يوجد عادة الربع الذي يستخدم كمساكن للتجار وعائلاتهم ويوجد لكل وحدة سكنية سلم منفصل خاص بها.

وكالة السلطان الغوري

هي مؤسسة تجارية ومسكن كان يأتي إليها التجار من سائر البلاد ومعهم مختلف البضائع لبيعها في مصر. كان التجار يستأجرون وحدات مكونه من مخزن ومحل لبيع البضائع وسكن في الدور العلوي له مشربيات تحجبه عن العيون لو اصطحب معه التاجر أسرته. الوكالة عبارة عن بناء مستطيل له فناء مكشوف في الوسط. وهي مكونة من ثلاثة طوابق، الدور الأرضي والدور الأول يستخدم كمخازن، أما الدور الثاني والثالث فمسكن للتاجر وأسرته. تضم الوكالة (29) مسكنًا ولكل مسكن سلم خاص به ليوفر له الخصوصية ومشربيات المساكن تطل على الصحن وعلى الواجهة.

وكالة قايتباي

أنشأها السلطان (أبو النصر قايتباي المحمودي) (1479م) بغرض استخدام أرباحها لشراء الفول المدشوش وتوزيعه على الفقراء. وقد عرفت بوكالة الدشيشة وكان بها مخازن ومحلات لبيع السلع، وغرف لإقامة التجار. لم يتبق منها اليوم سوى واجهتها وجزء من مخازن الدور الأرضي والدور الأول.



وكالة قايتباي

وكالة قوصون

هي من منشآت أمراء المماليك، أنشأها الأمير(قوصون) في عهد (الناصر محمد بن قلاوون) وهي تقع في شارع (الجمالية الآن) كان ينزل بها التجار ويعرضون بضائعهم المجلوبة من الشام كالزيت والصابون والجوز واللوز والفستق والبخور والتوابل. كانت حركة البيع فيها مزدهرة ويتجمع العتالون (أي الشيالون الذين يحملون البضائع) لمساعدة الناس. ولم يتبق الآن من هذه الوكالة إلا مدخلها وكان يطلق عليها (وكالة الصابون في العصر العثماني) وكان يوجد أعلاها ربع يسكن به (4.000) شخص و(360) بيتًا.

البيت في عصر المماليك

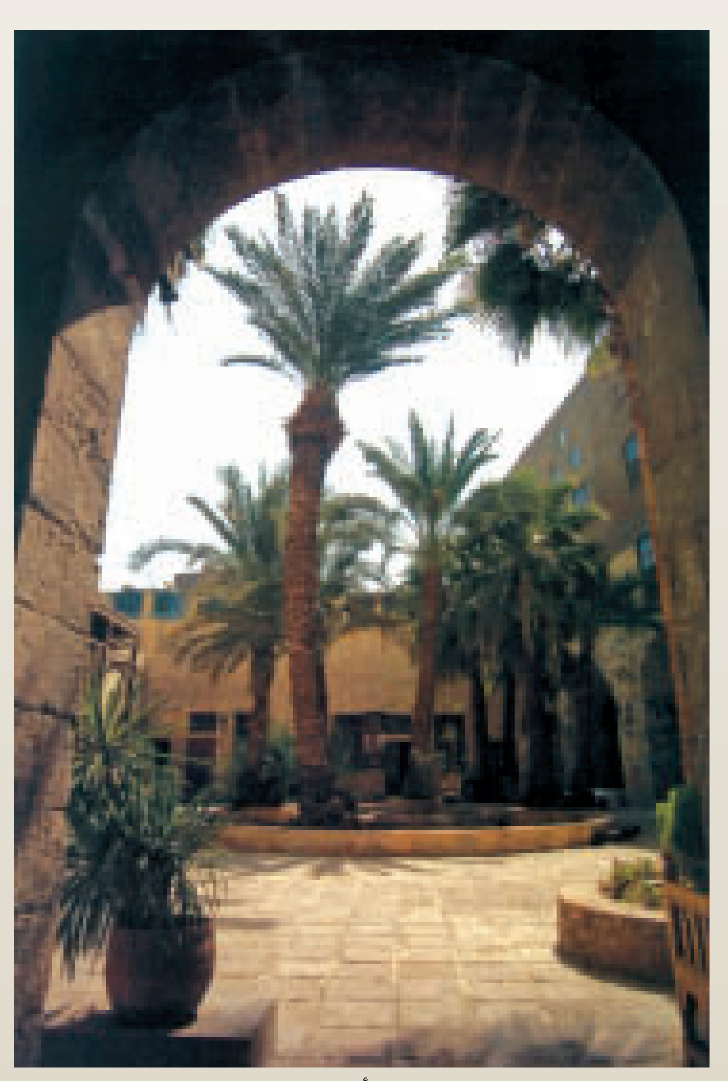
كانت البيوت في العصر المملوكي مكونة من فناء في الوسط وجناح للرجال يسمى (السلاملك) يشغل عادة الطابق الأول وبه المقعد الشتوي للرجال، وجناح للنساء والأطفال يسمى (الحرملك) وعادة يكون في الطابق الثاني، يشمل البيت أيضًا المطابخ والحمام والإسطبل المخصص للدواب وبئرًا لاستخراج المياه.

المقعد

هو مكان استقبال الرجال الغرباء من الضيوف لأنه لم يكن مسموحًا للغرباء بدخول الحرملك ولارؤية النساء.

قصر الأمير طاز (1352م)

هو الأمير (سيف الدين طاز بن عبد الله الناصري) من مماليك (الناصر محمد بن قلاوون) أعتقه السلطان وترقى في الوظائف حتى صار أميرًا للمجلس، وكانت مهمته ترتيب مجالس السلطان وحراسته. وقد ازداد نفوذ طاز في عصر السلطان(الناصر حسن بن الناصر محمد) وقد عين دوادارًا أي حاملاً للحبر وسكرتيرًا للسلطان. حدث خلاف وتمرد طاز على السلطان فتم القبض عليه وسجن، بعد ذلك عفا عنه السلطان ولكن عاش في دمشق حتى وفاته. كان طاز طويلًا وسيمًا شجاعًا ومحبًّا للعلم، بنى طاز هذا القصر في واحد من أهم شوارع القاهرة المملوكية بجوار جامع السلطان حسن مما يدل على مدى نفوذه القوي. القصر من أقدم وأكبر وأفخم القصور الباقية من العصر المملوكي، كان مكونًا من فناء كبير حوله أجنحة الحرملك والسلاملك وإسطبل وساقية لرفع المياه من بئر القصر. لم يتبق من العمارة الأصلية لهذا القصر سوى واجهته والمقعد وبعض صالات الحرملك. القصر به نقوش زخرفية وحفر على الخشب في السقف بأشكال نباتية بديعة الصنع.



قصر الأمير طاز

مقعد القصر

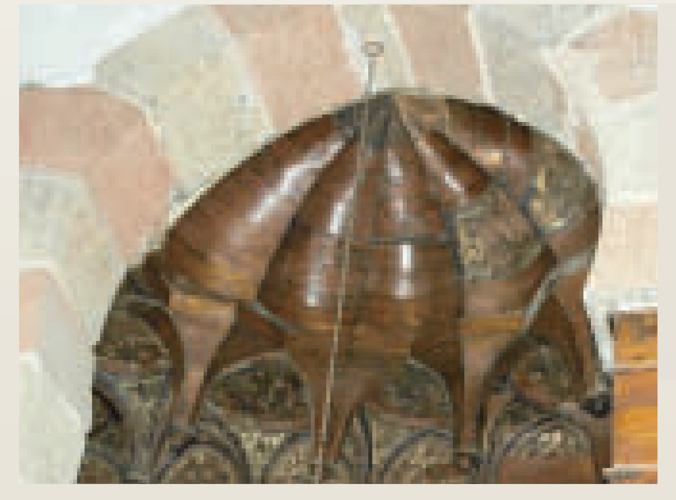
هو القاعة التي كان يستقبل فيها الضيوف الرجال في البيت، يقع في الطابق الأول وهو على شكل مستطيل أرضيته مصنوعة من رخام أسود وسقفه ملون بألوان زاهية من الخشب المزخرف بالرسوم الهندسية النباتية والزخارف الكتابية.

افتتاح القصر

افتتح (الأمير طاز) القصر يوم (30) يولية (1353م) فأقام وليمة كبيرة حضرها (السلطان الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد بن قلاوون). وكان حضور السلطان حدثًا غير مسبوق وشرفًا كبيرًا لطاز. ويعلق المقريزي على ذلك قائلًا: «ولم يعهد قبل ذلك أن أحدًا من ملوك الترك بمصر نزل إلى بيت أمير قبل الصالح هذا، وكان يومًا مذكورًا».[1]

قصر الأمير بشتاك

يقع بشارع المعز لدين الله (الآن)، أنشأ القصر الأمير(سيف الدين بشتاك الناصري) زوج إحدى بنات السلطان (الناصر محمد ابن قلاوون). بني القصر بالحجارة وكان ارتفاعه الأصلي خمسة طوابق. تتكون القاعة الرئيسية في الطابق الثاني من سطح مكشوف حوله أربعة إيوانات وسقفه خشبي مزخرف وحوله مقرنصات مصنوعة من الخشب. في الوسط يوجد فسقية من الرخام الملون، وكانت الفسقيات تستخدم في البيوت لتلطيف حرارة الجو. يوجد بالبيت الكثير من المشربيات لحجب حرارة الشمس ومنع عيون الغرباء.



وحدة زخرفية من قصر بشتاك

قصة

بنى أيضًا (جهركس الخليلي) طاحونة تدور بالماء وأوقفها عند مقياس النيل في مركب فكانت تطحن الدقيق للناس بدون تعب، وكانت تعتبر من العجائب وكان الناس يذهبون خصوصًا للفرجة عليها.[2]

الخان

الخان مبنى ينام فيه المسافرون والتجار؛ فهو مثل الفندق الآن، يكون عادة مربعًا أو مستطيلًا وله ساحة مفتوحة في الوسط.

خان الخليلي (1382)

بناه الأمير (جهركس الخليلي) وهو(أمير أخور) أي المسئول عن الإسطبلات والخيول في زمن السلطان برقوق. وقد أنشأ خان الخليلي كمكان لراحة التجار وتخزين بضائعهم وعرضها على الناس. أصبح خان الخليلي من أشهر أسواق القاهرة اليوم، ولم يبق أي أثر لمباني جهركس ولكن بقي الاسم.[3]

(1) القاهرة تاريخ حاضرة، ص134.

(2) بدائع الزهور، ص324.

(3) الخطط المقريزية، ص181.

الأضرحة

هي مقابر للدفن تشيد فوقها قبة كغطاء لها ويكون الضريح مكونًا من غرفة مزينة بآيات قرآنية بها محراب للصلاة. وقد زين المماليك قباب الأضرحة بنقوش هندسية وزخارف نباتية على سطحهما الخارجي في غاية الإبداع والجمال.



ضريح السلطان حسن

مدرسة وضريح سنجر وسلار الجاولي

تنتسب هذه المنشأة إلى اثنين من الأصدقاء وهما (الأمير سيف الدين سلار) نائب السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) والأمير الكبير (علم الدين سنجر الجاولي) أحد أمراء السلطان بيبرس. تم إنشاء هذا الضريح (1303 م) ويوجد به ضريحان يعلوهما قبتان: القبة الكبيرة دفن تحتها (الأمير سلار) وبها زخارف في رخام المحراب وجدار القبلة وأبوابها خشبية. أما القبة الثانية فمدفون تحتها (الأمير سنجر) وهي أقدم قبة حجرية مملوكية باقية حتى الآن. وملحق بالضريح خانقاه للصوفية على المذهب الشافعي مبنية على عدة مستويات. يقع الضريح بجوار مسجد السيدة زينب الآن، لم يعرف من هو مؤسس الخانقاه من الأميرين، ويرجح أن يكون الأمير سلار (1303م). [1]

القلاع

القلعة بناء حربي يستخدم كحصن دفاعي ومقر وسكن للسلاطين في نفس الوقت. تحاط القلعة بأسوار وأبراج للمراقبة لحمايتها.

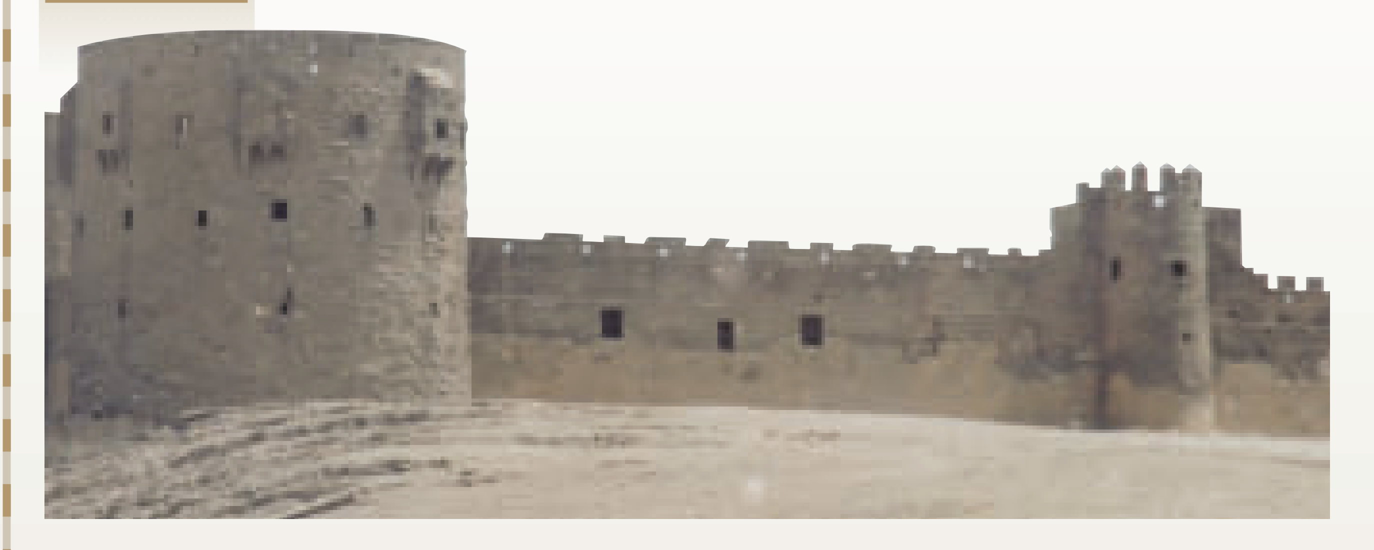
قلعة الجبل

بناها (الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي) في زمن الدولة الأيوبية فوق جبل المقطم. وقد أقام بها سلاطين المماليك البحرية والمماليك البرجية الذين أسكنهم (السلطان قلاوون) في أبراجها مثل برج الرملة وبرج الحداد.

وأضاف إليها سلاطين المماليك الكثير من المباني مثل: الإيوان الكبير: شيده (الناصر محمد بن قلاوون) وهو قاعة العرش الرئيسية وكان يقع في نفس موقع (جامع محمد علي) الحالي.

القصر الأبلق: بناه السلطان(الناصر محمد بن قلاوون) وكان مخصصًا لاستقبالاته اليومية وحفلاته الخاصة. وقد سمي أبلق لأن واجهته كانت مخططة باللونين الأبيض والأسود.

(1) **الخطط المقريزية، ص** 247.



قلعة الجبل

مسجد السلطان الناصر محمد: أنشأه السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) (1318م) في القسم الجنوبي من القلعة وكان يستخدم كمسجد لساكني القلعة.

القاعة الأشرفية: بناها الأشرف برسباي.

الحوش السلطاني: أنشأه (الناصر محمد بن قلاوون) (1138م) على مساحة أربعة أفدنة بجوار (الحرملك) وقد وضع به (3,000) رأس من الخرفان والأبقار. تعود أهمية هذا الحوش إلى حاجة السلطان لتوفير الطعام للقلعة في حالة حصارها كما كان يمد مطابخ القلعة باللحوم لاستخدامها في الموائد اليومية التي كانت تعد للسلطان ولمماليكه.[1]

قلعة قايتباي

تقع بالإسكندرية في منطقة الأنفوشي، أنشأها السلطان (الأشرف أبو النصر قايتباي المحمودي) (1467م – 1477م) وقد بناها مكان فنار الإسكندرية القديم. تطل القلعة على البحر الأبيض المتوسط، وقد أقيمت على مساحة فدانين، وبنيت أسوارها بالحجارة وهما سوران أحدهما داخلي والآخر خارجي، يحيطان بالقلعة من جهاتها الأربع. ويوجد بالقلعة مسجد وعديد من الأبراج للمراقبة.



قلعة قايتباي
في الإسكندرية

(1) أسوار وقلعة صلاح الدين، ص 140.

خايربك

هو نائب حلب في الشام في أيام السلطان (قنصوه الغوري)، كان خائنًا وعمل كجاسوس للعثمانيين يطلعهم على الأسرار. وعندما خرج السلطان الغوري في معركة (مرج دابق) انضم خاير بك للعثمانيين ووشى بالسلطان الغوري فقتل. وفي عصر الدولة العثمانية عينوه نائبًا للسلطنة بمصر ولم يرض مماليكه أن يتبعوه لخيانته فتخلوا عنه. وأطلق عليه الناس خاين بك بدلًا من (خاير بك) سخرية منه. وقد قتل عددًا كبيرًا من الناس ظلمًا وقهرًا. [1]

إنجازات العصر المملوكي

- دولة المماليك في مصر والشام كانت من أعظم القوى الإسلامية في العصور الوسطى، فقد قضى المماليك على الخطر الصليبي والمغولي.
- سيطروا على طرق التجارة العالمية برًا وبحرًا وخصوصًا طريق التجارة الشرقية من الهند إلى الصين وهي في طريقها إلى أوربا.
- تم نقل الخلافة العباسية لمصر في عهد الظاهر بيبرس (1260م) فأصبحت مصر عاصمة للدولة المملوكية وخصوصًا بعد نهاية الدولة العباسية على أيدي المغول في بغداد.
- ازدهرت الفنون الإسلامية ازدهارًا كبيرًا.
- كان عصر ثراء ورخاء اقتصادي ازدهارًا للصناعات والحرف المختلفة.
- اكتسب حكم المماليك صفة شرعية نتيجة لولائهم للدولة العباسية.
- كانوا قوة عسكرية عظمى.
- عصرهم مليء بالصراعات والفتن.
- تم إنشاء الكثير من المباني المعمارية المميزة مثل: المنازل والجوامع والخانقاوات والوكالات والمشاهد والمدارس.
- أمنوا البحر المتوسط من قراصنة البحار.
- نشطت حركة الثقافة العلمية والفنية في عصرهم.

قصة

تُحكى عن ظلم (خاير بك) قصة أنه أمر بشنق رجل من العامة على باب زويلة لأنه قطف حبات قليلة من ثمار خيار الشنبر من أحد الحقول التابعة للحكومة. وكان خيار الشنبر (الخروب) يزرع بكثرة في مصر. وفي آخر أيامه أصيب (خاير بك) بثلاثة أمراض وتعذب عذابًا شديدًا حتى وفاته.

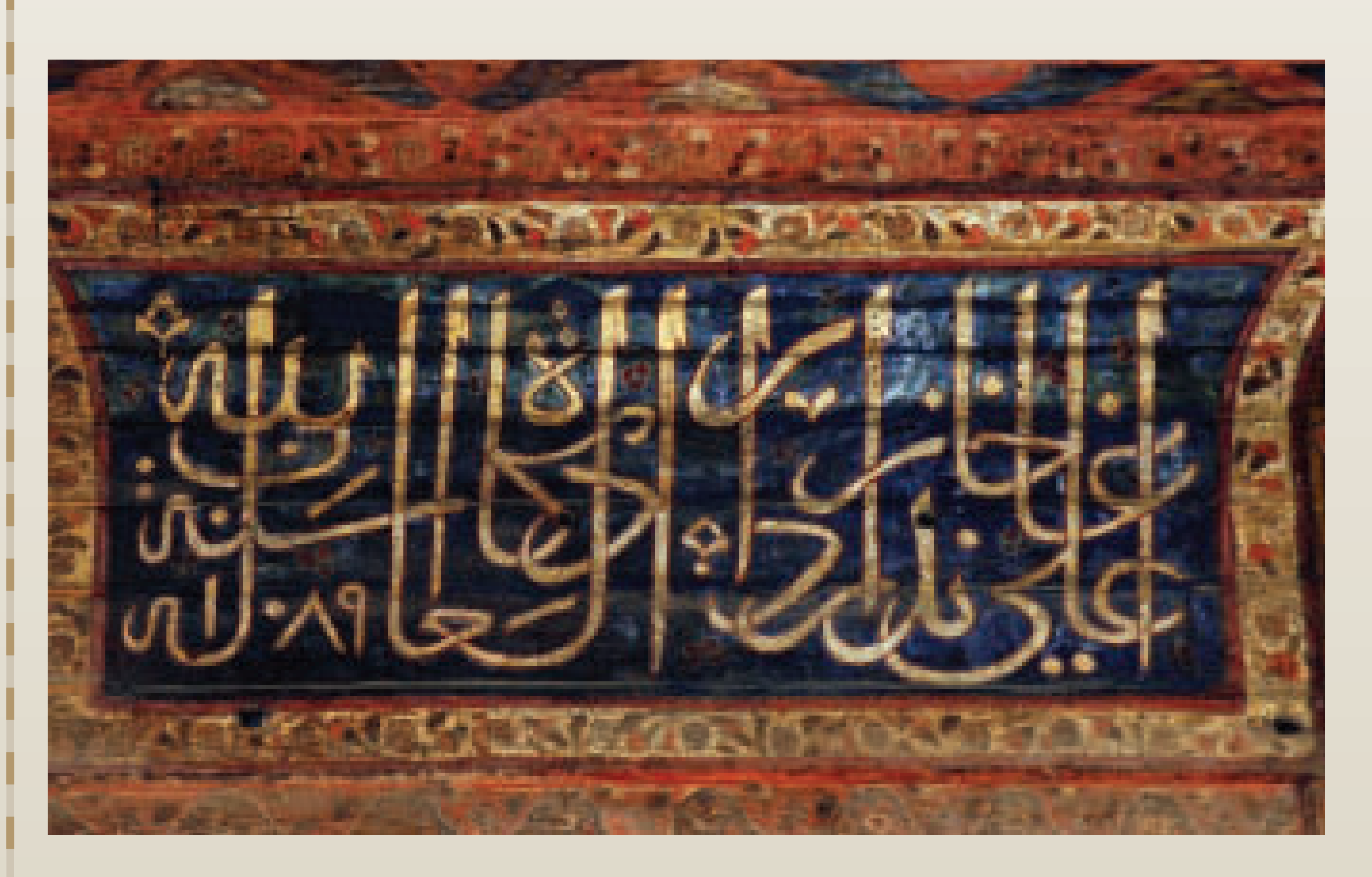
(1) بدائع الزهور، ص1563.

المصاعب التي واجهت المماليك

- هجمات المغول والصليبيين.
- وباء الطاعون (الدملي) في حكم السلطان حسن.
- معرفة (فاسكو دجاما) الطريق الملاحي إلى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح وتحول السفن الأوربية عن مصر.
- الجفاف وانخفاض منسوب النيل.
- الفتن والمؤامرات للاستيلاء على عرش السلطنة.
- الأزمة الكبرى، ساءت الأحوال الداخليه في مصر من سنة (1348م) إلى سنة (1415م) وسميت هذه الفترة بالأزمة الكبرى، عودة وباء الطاعون إليها عدة مرات ما بين (1374 – 1381م).
- (الطاعون الكبير – 1413م) حدث في زمن (السلطان المؤيد).

سقوط دولة المماليك

تولى السلطان (سليم خان الأول) عرش الدولة العثمانية (1512م) فضمَّ سوريا وشمال العراق وأرسل إلى السلطان المملوكي في مصر (طومان باي) للاستسلام واقترح عليه أن يستمر في الحكم بعد الاعتراف بسيادة (سليم الأول). رفض (طومان باي) العرض فنشبت حرب بينهما وهزم المماليك في معركة الريدانية (العباسية) (1517م). هرب (طومان باي) إلى إقليم البحيرة واختبأ في أحد البيوت ولكن سليم الأول قبض عليه وشنقه على باب زويلة. ولم تعد القاهرة منذ ذلك الوقت دارًا للخلافة الإسلامية، بل أصبحت ولاية تابعة للدولة العثمانية، وانتقلت خلافة المسلمين من القاهرة إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية.



المماليك البحرية

المعز عز الدين أيبك التركماني	1250م
المنصور نور الدين علي	1257م
المظفر سيف الدين قطز	1259م
الظاهر ركن الدين بيبرس الأول البندقداري	1260م
السعيد ناصر الدين بركة	1277م
العادل بدر الدين سلامش	1279م
المنصور سيف الدين قلاوون	1279م
الأشرف صلاح الدين خليل	1290م
الناصر ناصر الدين محمد	1293م
العادل زين الدين كتبغا	1294م
المنصور حسام الدين لاجين	1297م
الناصر ناصر الدين محمد (مرة ثانية)	1299م
المظفر ركن الدين بيبرس الثاني الجاشنكير	1309م
الناصر ناصر الدين محمد (مرة ثالثة)	1310م
المنصور سيف الدين أبو بكر	1341م
الناصر شهاب الدين أحمد	1341م
الأشرف علاء الدين كجك	1342م
الناصر عماد الدين إسماعيل	1342م
الكامل سيف الدين شعبان الأول	1345م
المظفر سيف الدين حاجي الأول	1346م
الناصر ناصر الدين حسن	1347م
الصالح صلاح الدين صالح	1351م
الناصر ناصر الدين حسن (مرة ثانية)	1354م
المنصور صلاح الدين محمد	1361م
الأشرف ناصر الدين شعبان	1363م
المنصور علاء الدين علي	1377م
الصالح صلاح الدين حاجي الثاني	1381م
برقوق (من المماليك البحرية)	1382م
المنصور ناصر الدين حاجي الثاني (مرة ثانية)	1389م

المماليك البرجية

الظاهر سيف الدين برقوق	1399م
الناصر ناصر الدين فرج بن برقوق	1402م
المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق	1405م
الناصر ناصر الدين فرج (مرة ثانية)	1406م
العادل المستعين بالله أبو الفضل العباس	1412م
المؤيد سيف الدين شيخ	1421م
المظفر شهاب الدين أحمد بن المؤيد شيخ	1421م
الظاهر سيف الدين ططر	1421م
الصالح ناصر الدين محمد بن ططر	1421م
الأشرف سيف الدين برسباي	1422م
العزيز جمال الدين يوسف بن برسباي	1438م
الظاهر سيف الدين جقمق	1438م
المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق	1453م
الأشرف سيف الدين إينال	1461م
المؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال	1461م
الظاهر سيف الدين بلباي	1467م
الظاهر تمربغا	1467م
الناصر ناصر الدين محمد بن قايتباي	1496م
الناصر قنصوه	1498م
العادل سيف الدين طومان باي	1501م
الأشرف قنصوه الغوري	1501م
الأشرف طومان باي	1516م – 1517م

المراجع

1. د. إبراهيم العدوي: ابن بطوطة في العالم الإسلامي، دار المعارف – 1983.
2. د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية – 1999.
3. د. أحمد عبد الرازق: المرأة في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1999.
4. أندريه ريمون: ترجمة لطيف فرج، القاهرة تاريخ حاضرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع – 1994.
5. أولج فولكاف: ترجمة أحمد صليحة، القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، الهيئة العامة للكتاب – 1986.
6. ابن بطوطة: زيارة مصر أم البلدان، الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1999.
7. الإمام تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الآداب – 1996.
8. د. رأفت محمد النبراوي: السكة الإسلامية في مصر – عصر دولة المماليك الجراكسة، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر – 1993.
9. د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ: كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1998.
10. عبد الله الشرقاوي: تحقيق وتعليق رحاب عبد الحميد القاري، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين، مكتبة مدبولي – 1996.
11. د. فتحية كامل حسين: الأزياء المصرية من الفراعنة حتى عصر محمد علي، دار المعارف.
12. د. قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسي والاجتماعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية – 1997.
13. د. محاسن محمد الوقاد: الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1999.
14. د. محمد حمزة إسماعيل الحداد: السلطان منصور قلاوون، مكتبة مدبولي – 1998.
15. محمد بن حمد بن إياس الحنفي المصري: بدائع الزهور في وقائع الدهور، مكتبة مدبولي – 2005.

